عراة
على ضفة النهر

صالح ابو اصبع

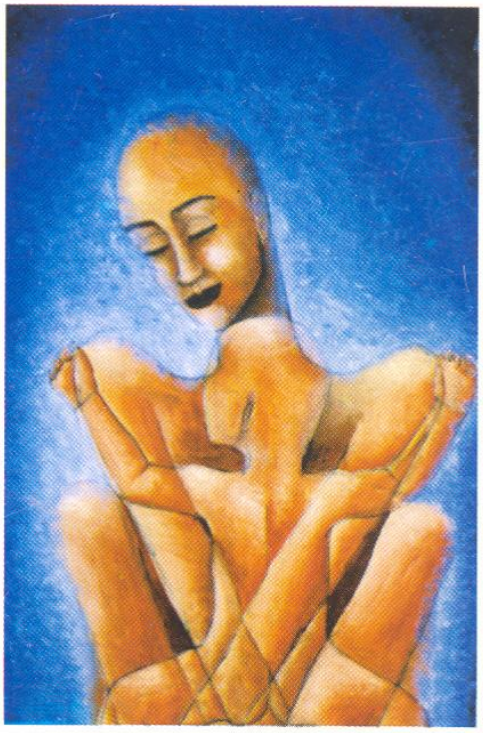

قصص قصيرة

الطبعة الثانية -١٩٩٨

عُراة على ضِفّة النهر

قصص قصيرة

طبعة إلكترونية –2019

الإهداء :

إلى روح أبي وأُمّي

تعلّمتُ منهما معنى الوطن وحبه .

عُراة على ضِفّة النهر

صالح خليل أبوأصبع

(الطبعة الأولى ، القاهرة : مطبعة المعرفة – 1972)

الطبعة الثانية

1998

الفهرس

دراسة بقلم : أ.د علي عشري زايد: المقاومة بالكلمة في{ عراة على ضفة النهر}	7
تحياتي للقيادة	23
لغة الرشاش	27
الطريق يتجه نحو الغرب	39
الخطيب	47
الصمت موت	51
ثلاثة أيام في القدس	59
كان يرتدي قميصاً أحمر	63
عراة على ضفة النهر	69
اليوم الحادي والعشرون	77
الثلج ينبت خنجراً	81
دائرة الضوء وحمام الميلاد الأول	89
اللقيا محرمة	97
ولكن عليا في واد آخر	**103**

دراسة نقدية

المقاومة بالكلمة
في
{ عراة على ضفة النهر }

دراسة بقلم : أ.د علي عشري زايد

(كُتبت هذه الدراسة تصديرا للمجموعة عام 1971)

تثير مجموعة القصاص الفلسطيني الصاعد صالح أبوأصبع (عراة على ضفة النهر) بشكل حاد ومباشر مجموعة من القضايا الهامة التي تتعلق بموضوع "أدب المقاومة" أو دور الكلمة في المعركة، وتؤكد قصص هذه المجموعة في نفس الوقت أن الكلمة في المعركة، وتؤكد قصص هذه المجموعة في نفس الوقت أن الكلمة الشريفة الشجاعة ستظل دائماً في معركتنا –وفي أية معركة– سلاحا بالغ الأثر. "فمن أسلحة النضال الفعالة الفاعلة الأدب والكلمة، وكم من قلم أمضى من السلاح"

ولكن الكلمة التي تقوم بهذا الدور النضالي .. الكلمة الأمضى من السلاح هي الكلمة الصادقة الشجاعة، الكلمة التي عناها محمود درويش شاعر المقاومة الفلسطيني حين قال: **نحن لا نكتب أشعاراً .. ولكننا نقاتل**

الكلمة التي تقوم بهذا الدور في معركتنا هي الكلمة المقاتلة فعلاً..وليست الكلمة المزايدة المتاجرة، ولا الكلمة الرنانة الجوفاء، ولا الكلمة النادية اليائسة. والمزايدة والجعجعة والنديب أخطر ثلاثة أشراك ولكن.. ما السبيل أمام الكلمة لتجاوز هذه الأشراك والنجاة من مخاطرها؟! سؤال بدهي يطرح نفسه على كل مشتغل بأدب المقاومة –إبداعا أو تقييما– والإجابة على هذا السؤال بالغة الصعوبة بمقدار ما هي بالغة اليسر، لأن هذا السبيل ذاته بالغ البساطة بمقدار ما هو بالغ التعقيد...فالسبيل

أمام الكلمة المناضلة للنجاة من قبضة هذه الأشراك هو أن تتدفق الكلمة بنبض واقعنا النضـالي، وتعكس –بأمانة وصـدق وشـجاعة– كل أبعاد هذا الواقع بكل ما فيها من سـلبيات وإيجابيات، دون أن يدفعها الجانب الإيجابي في هذا الواقع إلى لون من الحماس الدعائي الأحمق، الذي يصـور الأشـياء أكبر من حقيقتها، ويعطيها أكثر من قيمتها، وفي نفس الوقت دون أن يتردى بها الجانب السلبي مهما كانت فداحته – إلى لون من والنديب اليائس .. هذا هو السـبيل أمام الكلمة المقاومة لتكون بحق سـلاحا فعالا من أسلحة المعركة، فإلى أي مدى اهتدت مجموعة "عراة على ضفة النهر" إلى هذا السبيل؟!

لقد تبلورت –بأمانة– الكلمة المناضـلة الشـجاعة بكل شـروطها ومواصـفاتها السـالفة في هذه المجموعة، فقصـص صـالح لا تتعامى عن الجوانب المظلمة، والسـراديب الرطبة العفنة في واقع نضـالنا العربي .. إنها تعي هذه الجوانب –أفدح ما يكون الوعي– –وتعريتها– –أصـدق ما تكون– – التعرية....ولكن دون أن يسـقطها هذا الوعي الفادح في لون من النديب اليائس الجبان الذي ران على أدب المقاومة عندنا ردحاً من الزمن عقب حزيران– –مع أن معظم قصـائد المجموعة كتبت في تلك الفترة التي اهتزت فيها كل مقومات الصمود العربي .. ولكن في تلك الفترة التي اهتزت فيها كل مقومات الصـمود العربي .. ولكن مهما كانت كثافة الظلام– –ودائماً تلتقط حاسته المرهفة نسمة عطر عذراء عبر كل سرداب رطب.

وبنفس المقدار من الوعي الذي ترصد به قصص صالح الجوانب السلبية في واقعنا، تضـئ أيضـاً الجوانب المشـرقة الألاقة، والقمم الشـامخة في هذا الواقع، ولكن أيضـاً دون أن يقوده ذلك إلى لون من الهتاف الحماسـي والجعجعة، أو المتاجرة بالكلمات والشعارات –رغم تواجد الدواعي التي قد تغوي شابا في مثل إخلاص صالح ووعيه ومقدرته الفنية.. ودوره في صـفوف الثورة –بل إن صـالحاً يدين بشـكل مباشـر في إحدى قصـص هذه المجموعة –"الخطيب"– هذا النمط من الكلمات الرنانة وهذا اللون من المزايـدة بـالشـعـارات "الثورة في خطر ... والخطر يكمن في هتـافـاتكم

وشـعاراتكم ... إني ألعن هتافاتكم وشـعاراتكم" ... ويزيد من قيمة هذه الإدانة فنياً أنها تجيء على لسـان الخطيب الذي اعتاد أن يلهب حماس الجماهير بخطبه الحماسـية الملتهبة...وبشعاراته العالية النبرة ..أنه في النهاية يكفر بهذه الخطب ويتمرد على هذه الشعارات، ويتجه و "مدفع رشاش على كتفه إلى قاعدة رقم 14 في أغوار الأردن".

السمة الأساسية إذن في قصص هذه المجموعة –والميزة الأساسية فيها في نفس الوقت– هي تصويرها الأمين لواقعنا النضالي بكل أبعاده ومن هذه السمة سندلف مباشرة إلى عالم هؤلاء العراة على ضفة النهر.. فكل أبطال صالح عراة "شعبي يعرف هذا.. هم عراة أيضـاً" كما جاء على لسـان بطل قصـة "عراة على ضـفة النهر" الذي أطلق اسمها على المجموعة.

ولكن قبل أن نلج معا في هذا العالم الرحيب أحب أن أعلن أنني قد احتفي بعلاقة هذه المجموعة بموضـــوع "أدب المقامة" ودور الكلمة في المعركة..وبما تثيره قصصها من قضايا مرتبطة بهذا الموضوع.. ربما على حساب الحفاوة بالجانب الفني في تلك المجموعة وأنا حين أفعل ذلك لن افعله اسـتهانة بهذا الجانب أو اسـتهتاراً به فسـوف يظل النضـج الفني أبداً شـرطاً أولياً وأسـاسـياً في أي كلمة لكي تؤدي دورها النضـالي، ولا لأن هذا الجانب غير متوافر في هذه المجموعة بشكل يستدعي الحفاوة به، فسنرى معا من خلال معايشتنا لهذه القصص أنها تتمتع بلون من النضج المبكر الجدير بكل حفاوة، رغم أنها أول مجموعة تنشـر لصـالح... وإنما لأن القضـايا التي تثيرها هذه القصـــص حول موضـــوع أدب المقاومة أهم من الجانب الفني ذاته بحيث يغدو الوقوف الطويل أمام هذا الجانب على حســـاب تلك القضـــايا لوناً من الترف اللامبالي الذي لا يناسب الموقف.

على أن هذا لن يعني بالطبع أننا سنهمل الجانب الفني تماماً، إننا سنقف أمام هذا الجانب ولكن في الحدود التي تخدم القضـية الأسـاسـية التي تثيرها المجموعة من جوانب تلك القضية وأبعادها.

والآن..لنعد إلى المدخل الذي تواعدنا أن نلج منه عالم العراة على ضفة النهر لنجد أنفسنا مباشرة وجهاً لوجه مع أول قضية تثيرها هذه المجموعة من قضايا "أدب المقاومة" ... وهذه القضية هي وظيفة الكلمة المناضلة، أو بصيغة أكثر شمولاً دور أدب المقاومة... **ما هو تصـــور الكاتب لهذا الدور وتلك الوظيفة كما ينعكس هذا التصور عبر قصص مجموعته.؟**

إن الكلمة في "عراة على ضـــفة النهر" تقوم بوظيفة مزدوجة، فهي تعري وتضـيء ... تعري مظاهر التفسخ والركود والسلبية في واقع نضالنا، وتضئ جوانب الصـمود والتطلع والإيجابية، في هذا الواقع، إنها ببســاطة –وبأمانة– تصــور واقعنا بوجهيه المظلم والمضـــيء لا لتحبر قصـيدة نديب أمام الوجه الأول، ولا لتلقي خطبة حماس أمام الثاني... ولكن لكي يكون هذا بالواقع واضــحا –حتى العرى– أمام القارئ وحتى يتم لون من المشاركة بين القارئ وبين صاحب هذه المجموعة في وعيه الفادح –والشامخ– بأبعاد معركتنا.

إن أمام كل هوة يعريها صالح في مجموعته تنتصب قمة شامخة، قد لا نكون في حجم الهوة أحياناً، ولكنها دائماً تنتصـــب ... تلقى ظلالها العظيمة على أغوار الهوة.. أمام "مولانا" في الصـمت موت"– بكل ما يمثله من مظاهر الســقوط والخيانة في وجودنا، وبكل ما يرتبط به أيضـــا من قيم التخلف والجمود والمظهرية الزائفة .. التي رانت على وجودنا العســكري ردحاً من الزمن .. وأعدت قواتنا العســكرية لتكون مجرد أدوات تشريفات تسبح بحمد "مولانا" وتهتف له في كل مناسبة ومن ثم تتعلم من القوى شيئاً سوى "النظام والكلام .. ولا شـيء سواهما".. أمام كل هذه السلبيات التي تعريها القصـة قمة شموخ مضيئة .. متمثلة في بوادر التمرد على كل مظاهر التفسخ هذه، وتتبلور هذه البوادر الشجاعة في موقف الجندي حسن الذي هتف بسقوط الخيانة ولكن الخيانة لم تسقط وانما هو الذي سقط .. عذب ومات، ولكن دمه لم يضـع هباء وإنما سقى شـجرة التمرد في نفوس الجنود فامتدت غصـونها باسقة "والموت للنعام .. الموت لمن يضـــغط الزناد على أية حنجرة تهتف بالســـقوط " .. وتبلغ هذه الروح

المتمردة مداها المبارك في نهاية القصـــة حيث تتبلور في إصـــرار حازم على اجتثاث الخيانة من أصلها: "حين يأتي السيد سأنزع قناعي .. واترك الرصاصات الخمس حق الكلام" ..

وأمام انحلال "السيد" وسقوطه في "الطريق يتجه نحو الغرب". وتفسخ المدينة فســـادها .. وضـــعف ملائكتها الذين يدفنون رءوســـهم في الرمال .. أمام كل معالم الانحلال والفساد هذه تشمخ قمة طهر وضـئ .. أملا حاسما يتحدى كل قوى الفساد والعفونة والتحلل .. إنه ذلك الطريق المتجه نحو الغرب هو المعادل الواقعي لســـكة الســلامة في الأسـطورة الموروثة التي وردت في القصــة، لأنه طريق النضــال والفداء وهو في ذات الوقت طريق العودة إلى الوطن المغتصـب .. فوجهة كتائب الفداء –من شـــرق النهر أيضـــاً– هو ذلك الطريق المتجه نحو الغرب ووجهة قوافل العودة –من شـرق النهر أيضـا– هو نفس الطريق المتجه نحو الغرب ... ومن ثم فإن هذا الطريق ينتصـب في نهاية القصــة .. أملاً، وسـبيل خلاص "ووجدت نفســي مرتميا في شــارع طويل يتجه نحو الغرب .. فأيقنت أنه سكة السلامة".

هكذا يتعانق وجها واقعنا النضـــالي عبر كل قصـــة من قصـــص "عراة على ضفة النهر" وقد تطغى ملامح أحد الوجهين على هذه القصة أو تلك، كالوجه المشرق مثلا في "لغة الرشـاش" و "اليوم الحادي والعشـرون". والوجه الآخر في معظم قصـص المجموعة، ولكن تظل دائماً في كل قصـــة –مهما طغت عليها ملامح أحد الوجهين– قسـمة أو قسـمات من الوجه الآخر، تؤكد حقيقة أن المجموعة في مجموعها تصـوير أمين لواقعنا النضـــالي، ورصـــد صـــادق لكل أبعاد هذا الواقع الســلبية والإيجابية على السواء.

بل إننا نجد أحيانا الوجهين الســـلبي والإيجابي ممتزجين عبر الحديث الواحد والموقف الواحد بحيث يكون الموقف علامة إيجابية وهو في الوقت ذاته علامة سـلبية وقصـور، كما في قصـــة "لغة الرشـاش" فموقف البطل في القصـــة إيجابي بما فيه من شـــجاعة وبطولة وإقدام ولكنه في ذات الوقت يعكس جانبا ســـلبيا من جوانب واقعنا

النضـــالي بما فيه مخالفة لأوامر القيادة واســـتجابة لإغراء دواعي البطولة الفردية، بإطلاقه رصـاص رشـاشـه على مجموعة من جند العدو كلف بمجرد مراقبتها .. ولكنه لم يســتطع أن يقاوم الإغراء، وصـــحيح أن البطل حقق نتيجة طيبة ولكن موقفه يظل في النهاية تجســيداً لجانب من أهم جوانب الســلبية في نضــالنا وهو عدم قدرتنا على الالتزام بالتخطيط البعيد المدى .. بكل ما يتطلبه من ضـــبط للنفس، وعدم الخضـــوع لإغراء النصـر الخاطف السـريع –والفردي عادة– على حسـاب الهدف الشـامل .. وقد صـور صـالح هذا الجانب ببراعة فنية ملحوظة، حين نجح في رده إلى بواعثه الأصـلية ف تكويننا النفس، فالبطل ف "لغة الرشـــاش" بطل بلا جدال .. وشـــجاع بلا جدال، ولكن بطولته محسوبة عله بقدر ما هو محسوبة له، فصالح صور أبطاله بكل عيوبهم ومزاياهم، وهذه السمة من سمات قصص صالح تقودنا مباشرة إلى القضية الثانية من القضـايا المرتبطة بموضـوع أدب المقاومة التي تثرها هذه المجموعة، وه قضـية "طبعة الأبطال والأحداث ف أدب المقاومة".

لقد دأبت قصص المقاومة عندنا على أن تضفي على الأبطال والأحداث لونا من المبالغة وتكســوها بعض الملامح الأســطورية مما يفقدها في الغالب قدرتها على الإقناع والنفاذ إلى وجدانيات القراء، وغالبا ما تتناول هذه القصص الأحداث الضخمة، والمواقف الكبيرة مما يكسبها لونا من المباشرة وعلو النبرة، ويبتعد بها بنفس القدر عن نطاق الفن.

ولكننا نجد الأبطال في قصـص صـالح أشـخاصـاً بسـطاء عاديين، والأحداث أحداثاً عادية عابرة .. الأسطورة سمة لا تعرفها قصص صالح – أحداثها وأشخاصها على الســواء وحتى عندما يكون محور القصــة حدثاً بطوليا أســطورياً أو شــخصــية أسطورية، فإن صالحا يحاول تجريد البطل أو الحدث من أسطوريته.

ففي قصـــة "الأم" مثلا التي محورها ذلك الموقف البطولي الخارق لأم أســـعد منذ عرفكم " ... وأن تتنكر أم لأبنها الحي فذلك، موقف غير عادي .. أما أن تتنكر لجثمانه فذلك هو الموقف الأسطوري الذي أختاره صـالح محورا للقصـة .. ولكنه نجح

بمهارة فنية بارعة أن يخفف الموقف من ملامحه الأسـطورية، وذلك بوسـيلتين فنيتين بارعتين، أولاهما: تركيزه على ذلك الصراع الداخلي والتمزق النفسي في وجدان الأم بن عاطفة الأمومة .. وبن الالتزام القوم، هذا الصراع الذي استغرق معظم القصة، وتمثل في تردد الأم وحرصـــها على رؤية جثة القتيل –التي لم تكن عرفت حتى ذلك الحين إنها جثة ابنها– أما الوســيلة الثانية فهي تصـــوير انهيار الأم تحت وطأة عاطفتها الممزقة بعد انسحاب الأعداء بجثة ابنها الخائن في نهاية القصة وانخراطها "في بكاء مرير .. ونشـيج متصـل" هكذا نجح صـالح في تخفيف الموقف والبطلة من ملامحها الأسطورية، فأصبحنا أكثر تعاطفا معها .. وتقديرا لتضحيتها النبيلة.

بل أن القصـة حين تدور حول أحداث واقعية أسـطورية، وأبطال واقعيين ... أسطوريين، فإن صـالحا يركز على الجانب اللا أسطوري في تلك الأحداث، والملامح اللا أسـطورية في هؤلاء الأبطال. ففي قصـة "تحياتي للقيادة" وهي إحدى القصـص الواقعية بأحداثها وأشـخاصـها، حيث تدور القصـة حول تضـحية الشـهيد "عبد الفتاح سـلمى" واسـتشـهاده في سـبيل هدف نبيل رائع هو أن يظل للفداء الفلسـطيني وجهه الناصـع الذي يلوثه دم برئ، .. فقد كلف الشـهيد عبد الفتاح مع زميله المناضـل "عمر عبد الرحيم حماد" بنسف الجناح الإسرائيلي في معرض أزمير الدولي بتركيا، وبعد أن جهز البطلان شـحنة المتفجر، وضـبطا جهاز التوقيت فوجئا بمظاهرة للطلبة الأتراك في الجناح الإسـرائيلي تناصـر العرب وتهتف ضـد إسـرائيل ووقع البطلان في خيار صـعب "بين أن ينسـفا الجناح بما في ذلك من تعريض لأرواح هؤلاء الأبرياء للخطر، أو أن يخرجا بالمتفجرات التي ستنفجر بعد ثوان بما في ذلك من تعريض لحياتهما هما لخطر مؤكد، واختار البطلان الطريق الثاني إصـــرارا منهما على "أن يســـمع العام صـوتنا .. ولكن يجب أن يكون نظيفاً، لا ضـحايا ولا أبرياء .." ويسـمع العالم صـوتنا نظيفاً وناصـعاً ويكون دم الشـهيد عبد الفتاح هو ثمن نصـاعته وطهره، وهذا ولا شـك موقف أسطوري نبيل .. وواقعي في نفس الوقت، فما الذي فعله الكاتب في رصده لهذا الموقف الذي اختاره محوراً لقصـــته؟ – مرة أخرى نجده يلجأ إلى وســـيلتين فنيتين

بارعتين، فيعمد أولا إلى عدم تصـوير الأحداث تصـويراً مباشـراً، مما في التصـوير المباشـر من تضـخيم للحدث وتركيز على تفصـيلاته، وإنما قدم الأحداث من خلال وعي أحد بطلي القصة وهو المناضل "عمر" مما ساعده على التركيز على الأصداء النفسـية والظلال الشـعورية "والأحداث دون تفصـيلات الأحداث ذاتها، أما الوسـيلة الثانية فهي حفاوة الكاتب برصـد الجانب الإنشـائي في الموقف على حسـاب الجانب البطولي، والحرص على التركيز على نفحة الوجه الناصـع للثورة، وهكذا اسـتطاع صـالح أن يقنعنا بهذا الموقف الخارق الجليل، وأن يدعه يتسـلل إلى قلوبنا بكل نبالته وروعته.

وتقودنا قصـة "تحياتي للقيادة" إلى السمة الثالثة من سمات هذه المجموعة أو القضية التي تثيرها المجموعة ، وهذه السمة هي واقعية هذه القصص ومعايشة الكاتب لتجارب أبطاله، فـ "الأخ صالح أبو أصبع مارس عملياً نشاطه بين صفوف الثورة وفي إطارها، وكان كتماش مع عناصـر الثورة المسـلحة حينا وجماهيرها حيناً آخر" ، ... وكان ممكناً ألا يعنى هذا في النهاية شيئاً بالنسبة لموضوعنا لو لم تتوفر لصالح تلك الحاسـة الفنية المرهفة التي مكنته من اسـتيعاب هذه التجربة الرائعة –تجربة انتظامه في صـفوف الثورة – اسـتيعاباً فنياً واعياً، لكي يعكس بعد ذلك ملامحا في قصـصـه، مما أكسـب هذه القصـص هذه النكهة المميزة وذلك الطعم الطازج الحريف، وذلك الإحساس الحار المقنع.

ولقد كان ممكناً لهذه الحقيقة –حقيقة انتظام الكاتب في صـفوفه الثورة ومعايشته للمناخ العام لقصـصـه، وأحياناً للأحداث والأبطال كان حرياً بهذا أن يكون شركا يسقط صالح في هذا التصوير الفوتوغرافي للأحداث والوقائع ... ولكن نضج الأداة الفنية لدى صـالح كان يحميه دائماً من الوقوع في ذلك الشـرك ...فكان يتجنب دائماً التصـوير المباشـر للأحداث الواقعية– التي عايشـها عن قرب أو عن بعد. خصوصا إذا كان الحدث كبيراً.

ولا يعني هذا أنه كان يهمل الأحداث الكبرى في مسيرة الثورة الفلسطينية ولكنه يرصدها بطريقته الفنية البارعة "التي تنأى به عن التقريرية والفوتوغرافية والتصوير المباشر، فمثلاً أحداث أيلول سنة 1970 والمجازر التي تقوم بها السلطات لتصفية المقاومة الفلسطينية كانت محورا لعدة قصص من قصص المجموعة (كان يرتدي قميصاً أحمر– الثلج ينبت خنجراً، ولكن عليا في واد آخر) ولكن صالحا يترك الأحداث الكبرى ويستخدمها كمجرد خلفيات لقصصه، يرصد انعكاساتها على وجدانات أبطاله، ويختار لحظات إنسانية عابرة يعمقها ويركز فيها كل قسوة المأساة وكل فداحتها، وهكذا يدين السلطة في هدوء أشبه بالصمت، ولكنها إدانة فادحة رهيبة، أعلى صوتا من كل ضجيج الخطب، وجعجعة الهتافات.

" هل أدركت كيف يصبح الشعب الواحد شعبين ... هل أدركت كيف يقتل الرصاص العربي جسدا عربياً" ... (كان يرتدي قميصاً أحمر).

" لم يعد اجتياز النهر مغامرة واحدة بل مغامرتين .. وليس على ضفة واحدة من النهر، بل ضفتين" (ولكن عليا في واد آخر).

أي إدانة أبلغ من هذه الإدانة الهادئة؟ذ.. أن الكاتب يضع السلطة –بطريقة فنية بالغة المهارة– على صعيد السلطة الصهيونية المحتلة –بدون افتعال للهتافات والشعارات، وبنفس البراعة ونفس المقدرة يجردها من عروبتها ... بل إنسانيتها –دون أن يهتف ضدها– وهذه هي أمارة الفن الناضج البليغ.

ولكن صالحا حين يحاول أن يرصد أحداث أيلول الكبرى رصداً مباشراً فوتوغرافيا تغدو كلماته أقل إقناعا ... وتفقد قدرتها الباهرة على التأثير والنفاذ كما في قصة "ولكن عليا في واد آخر" وتظل تلك اللمحات الوادعة في القصة هي الأقوى تأثيراً والأقدر على الإدانة وعلى الإقناع، والأكثر تعبيراً في نفس الوقت على نضج الأدوات الفنية لدى صالح، هذا النضج الذي يمكنه من تقديم أخطر الأحداث وأفدحها في بساطة بالغة ... بحيث تتسلل هذه الأحداث إلى نفوسنا من أخفى المسارب وتمتزج بوجداناتنا أتم ما يكون الامتزاج، لتمارس تأثيراتها النفسية والفكرية التي يريد لها الكاتب

أن تمارســـها، فلا نحس إلا ونحن معه ... موقعا ... وإقناعاً ... ورأياً .. وتعاطفا مع أبطاله الضائعين الممزقين ...

وهذه القدرة الباهرة على تبسيط الأحداث ساعدت صالح على أن يجعل من الموت والدم نغمتين أساسيتين في قصصه دون أن يصدمنا مرأى الدم .. أو تواتر الموت، الدم دائماً نهر غزير يتدفق عبر كل قصة .. والموت قدر معظم أبطال صالح ومصـــيرهم المحتوم –بل وأحبانا غايتهم وهدفهم– والموت والدم أفدح وأفجع ما في الوجود، ولكن صالحا ينجح دائما –بالبساطة البارعة التي يقدمه للقارئ العربي هو أن يجعله ينظر إلى الموت والدم ببساطة، فالاستهانة بالتضحية وألفتها هو أول خطوة في سبيل القبول بها، وإذا ما قطعنا هذه الخطوة سهلت علينا بقية الطريق.

بل ان الدم دائما في قصص صالح وسيلة تطهير وخلاص .. فحيث يسيل الدم ينبت الفداء الصـــادق .. وتورق الحياة الحرة .. "كان الدم ينزف بغزارة وضـــياء الشمس يغرق الغرفة ... شعرت بالدم طهرا لأعماقي .. وكأن الدم المنزوف إنما هو حمام الميلاد الأول". (دائرة الضوء وحمام الميلاد الأول).

بقيت قضية أخيرة، هي قضية التكنيك في "عراة على ضفة النهر" وما يشيره هذا التكنيك من قضايا مرتبطة بموضوع أدب المقاومة .. وإلى أي مدى تساوق هذا التكنيك مع تصور الكاتب لوظيفة الأدب المقاوم.

والتكنيك في قصص صالح تكنيك فنان متمرس –رغم أن هذه أول مجموعة تنشر له كما سبق أن أشرنا –متمكن من أدواته .. مستوعب تماماً كل التيارات الفنية الحديث في عالم القصـــة، وهو قبل ذلك كله يتمتع بحاســـة فنية على جانب كبير من الرهافة والدربة. وقد تزاوجت هذه العوامل فأخرجت هذا التكنيك المتميز الناضج.

ولعل أبرز سمات هذا التكنيك هو حفاوة الكاتب بتصوير الأبطال من الداخل والاهتمام في الدرجة الأولى بتســجيل الواقع النفســي والشــعوري لدى هؤلاء الأبطال

ورصـــد الحركة الداخلية لوعيهم، وعدم الحفاوة بالواقع الخارجي إلا بمقدار ما يضـــيء هذا الواقع العالم الداخلي للأبطال وحتى في القصـــص التي تحتفي حفاوة ملموســـة بتصوير الواقع الخارجي إنما هي خدمة للواقع النفسي والشعوري .. تعميقاً له، ورصداً لامتداداته وأبعاده في نفوس الأبطال.

ففي قصة "الأم" –وهي من أحفل قصص المجموعة بتصوير الواقع الخارجي ورصـــد أحداثه– نكتشـــف في النهاية أن الحفاوة برصـــد الواقع الخارجي وتســـجيل وتفصـيلات أحداثه من تردد الأم، وإصـرارها الملح على مشـاهدة جثة الشـخص الذي قتل على باب المســـجد –والذي لم تكن تعرف حتى ذلك الحين أنه ابنها– ورغبتها القوية في التعرف على هوية القتيل، رغم مراجعة الشـــيخ لها، ولفته نظرها إلى ما يحقق بمحاولتها من أخطار ... ثم بحثها القلق المتلهف عن ابنها فور عودتها إلى المنزل ... إلى آخر هذه التفصيلات التي سجلها صالح للواقع الداخلي وإضاءة أبعاده في وجدان الأم، وإبراز ذلك الصـــراع النفســـي في داخلها بين عاطفتها كأم .. وبين التزامها القومي كعربية .. وكواحدة من شـعب مشـرد. وكابنة شـهيد، فإذا كان الطرف الثاني من أطراف الصراع قد برز واضحا بانتصاره في النهاية، واستجابة الأم لدواعيه برفضـــها جثة ابنها التي حملها إليها جنود العدو .. فقد كان الطرف الأول –وهو عاطفة الأم، في حاجة إلى قدر مماثل من العناية والإبراز، حتى يتم التوازن بين الطرفين، وحتى تجيء، تضـحية الأم في النهاية في إطارها الطبيعي .. مقنعة ونبيلة، فكانت العناية بتفصيلات الواقع الخارجي، الذي يعكس حدس الأم الداخلي وإحساسها بالخطر على ابنها، وهذا الحدس وهو الإحســـاس يمتدان مباشـــرة عن عاطفة الأم المرهفة ويتجســـدان خارجيا في حرص الأم على معرفة هوية القتيل من ناحية، وفي قلقها على ابنها وبحثها عنه فور عودتها بكل تفصـــيلات هذين الموقفين وهكذا كانت تضـحية الأم في النهاية تضـحية إنسـانية – لا تضـحية أسـطورية– تضـحية أم تشـعر بعاطفة الأم كأرق وأرهف ما يكون الشعور، ولكنها تضع التزامها القومي ... وعاطفتها نحو قضيتها فوق كل عاطفة.

ونتيجة لالتزام صالح بتقديم أبطاله من الداخل فإنه يروي لنا معظم القصص من خلال وعي الأبطال، أما الحديث الخارجي فلا ينال إلا اهتماما ثانويا لديه، فلا يعبأ به إلا بمقدار ما يرصد انعكاسه على واقع أبطاله الداخلي، أو انعكاس واقع الابطال الداخلي عليه. بل ربما خلت القصة تماما من كل حدث خارجي كما في قصة "دائرة الضوء وحمام الميلاد الأول" .. التي تنبني كلها على تيار شعوري داخل البطل يدور حول إحساسه بالعجز، ورغبته الملحة في فعل شئ، أي شئ مهما كان تافهاً، وأخيراً إحساسه بالعزلة وبالرغبة الجارفة في تحطيم الجدران الزجاجية التي تعزله عن الآخرين ليتحد بهم ويلتحم، .. وفي سبيل هذه الغاية يحطم جدران غرفته الزجاجية التي تحجبه عن الآخرين، وتجعله عاجزاً وحده عن فعل أي، شيء ذى قيمة .. يحطم جدران الغرفة ويسيل الدم غزيراً من قبضتيه ولكنه يحس بهذا الدم تطهيرا لضعفه وعزلته، ورباطا وثيقا يشده بالآخرين الذين ينتمي إليهم وينتمون إليه والذين سيصبح معهم قادراً عن صنع ما عجز عن صنعه وحده.

تخلو هذه القصة تماماً من الحدث الخارجي، ويقدمها صالح في مجموعة من التيارات الشعورية التي يمتزج فيها الحلم بالواقع، والحقيقة بالخيال، وتلك خاصية أخرى من خصائص التكنيك الذي اختاره صالح لقصصه، وهذه الخاصية بالذات تضفي أحياناً على بعض القصص لونا من الغموض وتفقدها ترابطها الذهني والمنطقي، وهذا بدوره يثير قضية أخرى هامة هي قضية تلأوم الغموض الفني، وأمارة على اهتمام الكاتب بواقع ابطاله النفسي بما فيه من غموض وتشابك وتعقيد، وقد شاعت ظاهرة الغموض في أدبنا العربي الحديث بكل أجناسه –شعرا وقصة ومسرحا– ونتيجة لاتصال هذا الأدب الوثيق بالآداب الغربية بما يسودها من تيارات مختلفة. ومن ثم فإن هذا الغموض كثيرا ما يكون ميزة من ميزات الأدب لاعيبا من عيوبه، ولكن حين يتصل الأمر بأدب المقاومة فإن هذا الغموض ينبغي أن يكون محسوباً، لأن هدف أدب المقاومة الأول هو الاتصال بأكبر قطاع من الجماهير، وممارسة التأثير النفسي والفكري عليهم لربطهم بالقضية، ولا شك أن الغموض المغرق يقوم حاجزا بين هذا

الأدب وبين أن يمارس تأثيره على نطاق واسع. ولكن ليس معنى أن يكون أدب المقاومة تقريريا أو مباشرا أو خطابيا/ وبالعكس إن النضج الفني، والعمق مطلوبان بنفس القدر الذي يطلب به الوضوح، وربما أكثر، بل أحيانا يكون الغموض ذاته ضرورياً في أدب المقاومة، خصوصاً حين يقاوم هذا الأدب قوى العسف والطغيان والتخلف التي قد لا يكون من مصلحة قضية المقاومة ذاتها التعرض لها مباشرة، ولكن بشرط أن يظل هذا الغموض ستارا شفيفا لا يحجب ما يريد الأديب توصيله إلى جماهيره العريضة من أفكاره وقضاياه.

ثمة إذن صراط دقيق بين الغموض والتقريرية، هذا الصراط هو الامتحان الحقيقي لأديب المقاومة، ونادرا ما سار أديب على هذا الصراط، دون أن تنحرف به قدمه إلى أحد جانبي الطريق، وغالبا ما يكون هذا الجانب جانب التقريرية والخطابية، وأشهد أن صالحا في هذه المجموعة لم تجنح به قدمه سوى قليلا، وفي قصة أو قصتين وكان جنوحه إلى الجانب الآخر، جانب الغموض .. وربما كان هذا الجنوح رد فعل مباشرة لجنوح معظم أدب المقاومة نحو المباشرة والتقريرية.

أما لغة صالح في هذه المجموعة فهي مجملها لغة متوترة، وحادة وسريعة النبض كطلقات مدفع رشاش .. الروابط وأدوات الوصل اللغوي تكاد تكون منعدمة بين عباراتها، تستقل كل عبارة بكيانها الخاص .. وتمارس تأثيرها الخاص المستقل على وعي القارئ، بحيث يظل وعليه دائما يقظا .. وحتى لا يسترخي الإغراء انسياب الجمل المترابطة وتسلسلها، "العملية تمت بسرعة وإنجاز ماهر هاهي الأرض مفروشة بالموت، وهم الآن يتحركون بخطى سريعة .. يتمتعون باغنيات جذلى، معرشة بالغار .. ضوء خافت على مضض يتقدم .. الأربعة فجأة يتحركون .. أصوات مدافع غير مأمورة من الضفة الشرقية تحاول أن تفرش لهم طريق سلامة .. المدفعية بالمدفعية تقابل .. الكشافات تحيل الليل نهارا .. أيتها السماء أمطري –إن كنت تستطيعين– ظلاما (اليوم الحادي والعشرون) .." هكذا تتابع الجملة لاهثة .. سرعة النبض .. بدون أي رابط لغوي تقريبا.

وربما كان هذا الأسلوب اللغوي هو أنسب الأساليب لتصوير الواقع النفسي والشـــعوري المبني على تداعيات غير مترابطة ظاهريا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهو ملائم تماما لهذا المضمون الثائر الحاسم ف المجموعة.

على أن هذه اللغة المتوترة الباترة كثرا ما ترق وتشف حتى تغدو شعرا صافا .. حين تصور عاطفة مرهفة، ففي قصة " اللقيا محرمة" التي ضمنها الكاتب أبياتاً من قصيدة محمد المناصرة "كنيسة القيامة" –والتي تكاد تكون تنويعات فنية على هذه القصيدة– ترق لغة صالح وتصفو حتى تختلط بشعر المناصرة "موعدنا غدا كنيسة القيامة تجمعنا الآلام والأحزان والندامة .. صـــفصـــافها يلوح مطرقا حزينا .. تلح في صدورنا حمائم الأشواق" .. فصالح لم يقتبس هنا من شعر المناصرة سوى البيت الأول "موعدنا غدا كنيسة القيامة" ([1]) ومع ذلك فإن بقية المقطع شعرا يختلط بشعر المناصرة.

وبعد...

فهذه جولة سريعة في عالم "العراة على ضفة النهر" المجموعة القصصية الأولى للقصاص الفلسطيني الصاعد صالح خليل أبو أصبع، وعلى الرغم من أننا في الجولة لم نقف طويلا أمام الجانب الفني في المجموعة، إلى أن هذه الوقفات القصيرة أمام هذا الجانب قد كشـــف لنا عن إمكانيات فنية واعدة لدى صـــالح، تجعل من هذه المجموعة وعدا أكيدا بعطاء سخي في عالم قصة المقاومة .. وإذا كانت هذه الوقفات القصيرة قد كشفت لنا جانب "الفنان" في شخصية صالح، فإن الوقفة الأساسية أمام قضـــية :أدب المقاومة" وما قدمته هذه المجموعة في هذا المجال قد كشـــفت لنا عن جانب "الثائر .. والمناضل" في شخصية صالح، وأرجو ألا أكون قد غبنته بأي من الموقفين.

([1]) انظر نص القصيدة في ديوان -يا عنب الخليل "المناصرة.نشر دار العودة ص4.

تحية للصــديق صــالح .. أديبا .. وثائراً، وتقديرا للشــاب الفلســطيني الثائر الواعي، المناضل بكل سلاح.،،،

علي عشري زايد
أستاذ النقد الأدبي
كلية دار العلوم –جامعة القاهرة
1971

تحياتي للقيادة

(إهداء إلى المناضل عمر عبد الرحيم حماد وروح الشهيد عبد الفتاح سلمى)

نسرع.. ندور يمينا.. ثم يسارا.. نتوقف.. أقدام خلفنا. نتوقف يا عبد الفتاح.. اهمس له صاحب المعطف الرمادي.. ما زال يتابع خطوتا.. وفي ذهني صور عديدة.. وصوت دوي انفجار.. ها قد سقطت اللافتة .. ها قد سقط الوجود الذي غرس في قلوبنا.. جناح إسرائيل في معرض أزمير الدولي. ومشاعر غريبة تجتاحني.. الأوامر محددة.. نسف الجناح بلا أبرياء أو ضحايا. الطلبة الأتراك يهتفون.. فلسطين عربية.. ينددون بحرق المسجد الأقصى.؟

– ماذا تصنع؟ قلت (لعبد الفتاح).

درنا دورتين داخل الجناح.. المكان الذي سنضع فيه العبوات استكشفناه هل نضع العبوات.. ولكن الأصوات تتعالى لتمزق آذاننا وتشل قدرتنا على الحركة. هي تقترب من الجناح.. ليس أمامنا إلا واحد من حلّين.. أن نضع العبوات الموقوفة كما هي مضبوطة.. وماذا سيعني؟ سوى قتل هؤلاء الذين جاءوا يتظاهرون من أجلنا، أو أن نغامر بخروجنا والمتفجرات في جيوبنا.

وجذبت عبد الفتاح سريعا.. وبعيدا سرنا..

كان دبيب خطوات.. ندور ويدور الدبيب ليس بعيدا عنا، ثم نسمع جهاز التوقيت يدق.. دقات رتيبة.. أحست وكأنها قرعات طبول في واد عريض.. تصطك أصوات في جنبات الوادي فيعود صداها إلينا.. الثواني تمر عن بعد أمتار كان يمكن أن تسمع دقات قلبينا.. الثواني غالية وثمينة حينما تكون مقياسا للموت أو الحياة.. خلال ثوان علينا أن نبطل مفعول جهاز التوقيت.

وصوت القائد الرخيم يقول.. لا بأس يا عمر أن يسمع العالم صوتنا ولكن يجب أن يكون صوتا نظيفا.. لا ضحايا ولا أبرياء.

زرنا الجناح مرات وحسبنا بدقة الثواني التي يقفل فيها الجناح أبوابه أمام الزوار. والثواني التي يدخل فيها عمال النظافة أو يخرجون.. وكان علينا أن نضع

المتفجرات في مكان ملائم لنسف الجناح .. فلسطين عربية.. فلسطين عربية.. هذه المظاهرة ألم تجد مكانا تتظاهر فيه؟. لِم لم تذهب إلى السفارة الإسرائيلية أو الأمريكية أو مبنى الحكومة أو البرلمان..؟!!وأي مكان إلا هذا المكان..!!

عبد الفتاح يقول لي ناولني ما في جيبك.. دقات قلبي تعلو كلّما مرت ثانية جديدة أرقب البحر.. وأتخيل نفسي أشلاء ممزقة.. طعاما شهيا.. لحيتان البحر.

عبد الفتاح يمسك بجهاز التوقيت يحركه يحاول أن يعطل دورانه.. عبد الفتاح يحركه.. اشعر بسعادة ونشوة غريبة.. القائد (أبو مازن) بوجهه المهيب يعانقني يودعني.. يشد على يدي.. أنتم تخاطبون ضمير العالم بصوت مرتفع إياكم أن تخاطبوه بالضجيج.. لا ضحايا ولا أبرياء.. الأوامر يجب أن تنفذ هذا ما أعنيه.

كنا قد أرسلنا للقيادة معلومات كافية عن الجناح مع عديد من الصور له.. أبعاد الهدف السياسي من القيام بمثل هذه العملية واضحة كما صورتها لنا القيادة.. إذا ألقي القبض علينا وذلك احتمال من احتمالات عدّة.. واجبنا أن نعترف بأننا أبناء فلسطين. أبناء هذا الجناح الذي زوروا اسمه وكتبوا عليه إسرائيل..!!

هو ذا البحر..!! بحر يافا الذي ولدت في حضنه بعيدا بعيدا.. عبد الفتاح بجانبي يحرك عقربا من جهاز التوقيت، انشغل عنه بمنظر طفل يلهو بكرة بالقرب من والديه. طفولة سعيدة.. أطفالنا لا يجدون ما يأكلون.. في الشتاء تزحف المياه إلى خيامهم. يصطفون طوابير لينالوا وجبة غذاء مسروقة.

وتهب نسمة هواء باردة تعيد إلى حيوية زائدة.. وأحس بحاجتي لأن أصرخ، أن أركض، أن أطير.. المتظاهرون يهتفون فلسطين عربيه. أريد أن أجري في شوارع أزمير وأصيح عربي أنا.. عربي فلسطيني.. فلسطيني..

وأبو مازن حينما ودّعني همس في أذني: الإنسان هو مادة الثورة ومن أجله تقوم.. نحن باحتياجك كن حذرا.

أحسست بوجوم حينما تذكرت كلمات القائد وكأنها أعادتني إلى الحقيقة هنا بجوار عبد الفتاح على شاطئ البحر..

– عبد الفتاح أين وصلت..؟

لم يتكلم أشار بيده اسكت..

عدت مرة أخرى إلى خيالاتي.. تصورت نفسي هناك في الأغوار، والقائد يشد على يدي مهنئا.. والفدائيون من حولي أروي لهم تفاصيل العملية بحماس فيصفقون.. وينشدون ويدبكون.

ها إني أتحدث إليكم من مكان ما.. لست أدري ما هو.؟ على أية حال هو واحد من اثنين: مستشفى أو سجن، لكن شرطيا يحمل سلاحا يجلس بجواري.. حاولت أن أتحرك.. وجدت نفسي مربوطا بسرير.

سألت الشرطي بكلمات واهنة: أهذا سجن.؟ فلم يجبني.. سألت أهذا مستشفى؟ فلم يرد. حاولت أن أتحرك فلم أستطع.. أشرت للشرطي.. لم يتحرك.. ضغط الشرطي على جرس.. فقدمت ممرضة، بسمة عريضة على شفتيها طلبت كوبا من الماء..

البحر.. تذكرت البحر.. وعبد الفتاح بجانبي.. لكن أين عبد الفتاح؟ وأين أنا..؟

عيون القائد من جوف السقف تخرج تخاطبني.. لا بأس أن نسمع صوتنا العالم ولكن يجب أن يكون نظيفا بلا ضحايا أو أبرياء.

صرخت عبد الفتاح.. عبد الفتاح.. حاولت أن أنهض.. لم استطع. بدأت أعي قليلا من الحقيقة التي أنا جزء منها بضمادتي ووجودي المأسور، نقلوني إلى مكان ما. ولكني عرفت فيما بعد انه مكان للتحقيق.. مباحث جنائيه ومخابرات حققوا معي.. سألت أين

نظر المحقق إلي بنظرات صلبه، ثم قال هو في مكان ما.. بجرأة قلت: أنت تكذب!!. أين هو ؟؟! طلبت منهم جرائد الصباح.. سمحوا لي بها بعد استشارة الطبيب. مات عبد الفتاح..!! وشهقت ولكن كيف؟! وزميله عمر جريح.. من.؟ أنا؟ وأخذت أتحسس جسدي كي عبد الفتاح.؟اكتشف الحقيقة.. هي ذي الحقيقة عبد الفتاح مات.. كانت الأوامر صريحة.. لا أبرياء.. ثم صوت نظيف يخاطب العالم.

جاءني المحامي الذي عينوه ليدافع عني.. حدثني بمودة بالغة.. شـــعرت بأنني أستعيد شيئا من وجودي معه. سألني هل من شيء احتاجه منه..؟

بلغ تحياتي للقيادة وقل لهم كنا صـوتا نظيفا بلا أبرياء.. أو ضـحايا.. قل لهم إني سعيد جدا..

ثم جاء شاويش .. ليعلمني أن المدعي العام يطلبني

شباط – فبراير 1971/2/11.

الأم

تركض ويركض قلبها معها.. طلقات للنار سـمعتها وهي في السـوق الأقدام تغذ خطوها، وعيون الذعر تنطلق في كل اتجاه يمينا وشمالا، وإلى الخلف ثم ترتد إلى الأمام.. ركض الجميع... مثلهم ركضت توقفت.. الناس يركضون... توقفت... ثم جرجرت رجليها، وقلب المؤمن دليله.

الناس يسـألون... ماذا جرى..؟! ويسـألون ولا ينتظرون الإجابة. البعض يجيب ثم يعود ليسـأل.. ماذا هنا؟؟.. طفل صـرخ بأعلى صـوته: قتيل على باب الجامع.. شـيخ قال: يهودي. جندي يهودي، ثم تابع بهمهمات تصـدر من أعماقه.. الفدائيون.. فرك يديه بفرح وقال: سلمت أيديكم التي تضغط على الزناد.؟

سـيارات جيش الدفاع الإسـرائيلي.. زامور الخطر يتصـدرها.. تهرع نحو مكان الحادث. وجدوا ورقة عند الجثة منقوش عليها كلمات قليلة.. أوقعها الفدائيون العرب.. دبّ الذعر.. أخذت المتاجر تقفل أبوابها.. بينما ظل المقهى الرئيسي على حاله.. البعض فيه يلعب الورق.. آخرون يلعبون النرد.. والبعض يكركر بنرجيلته.. تظاهروا باللامبالاة..

يركضون.. الناس يركضون.. هنا وهناك في شوارع خان يونس وأزقتها.. ينعطفون في الأزقة ويركضـون.. ركضـت مثلهم بادئ الأمر ثم انخلع قلبها.. تقدم نحوها الشيخ..

- يا حاجة أسرعي إنهم لن يرحموا شيخوختك..

نظرت إليه وصـمتت.. وحتى لو رحموني فماذا سـتكون رحمتنا.. ماذا تبقى لنا يستحق الرحمة.. قبل الحرب الأولى كنت صغيرة.. قتلوا أبي... ماذا تركوا لنا سوى بطاقة إعاشة.. وأين.. ابني حبيبي...

هل أبقوه لها؟ أنخلع قلبها وأمســـكت عن الحركة.. ابني ماذا جرى لـه.؟ منذ دخولهم.. وهو يبتعد يوما بعد يوم عنها.. هي تأكل من بطاقة الإعاشـــة... وهو يغرق في الفلوس.. أصـــبح يعاقر الخمر.. يعاشـــر النســـاء.. كما فاحت رائحة حكايته.. لم تصـدق.. رفضـت نقوده.. وهو ابنها.. أبوها مناضـل كبير استشـهد.. اخوتها في الضـــفة الغربية لم ترهم منذ النكبة إلا بعد الاحتلال.. أبناء اخوتها استشهدوا..

– يا ولية تحركي.. قال لها الشـــيخ ذلك، ثم جذبها من كمها.. وجرجر خطواته الواهنة وهي معه.. ثم انطلقت رصـــاصـــات من رشـــاش.. كانت أفواج الجماهير تتدافع في كل اتجاه..

– وسألت لأول مرة ماذا جرى.؟!

– فدائي بطل (طخ) يهودي.. أجابها العجوز..

يهودي.. فرحت.. نزغرد. لا فلترقص.. وأحست براحة عميقة.

– هل رأيته.. هل رأيته.؟

– لا.. من سيكون إذا لم يكن يهوديا.؟

–.....

– قد يكون خائنا.. والخائن يهودي أليس كذلك.؟

– خائن.؟!!

– ويستحق مئة رصاصة بين عينيه.

مدت يدها إلى الجبين بين العينين.. وتسمرت في مكانها.

– يا ولية تحركي ما بك.؟

– أريد أن أرى القتيل.

– هل جننت؟؟! واحد فطس في جهنم مالك وماله.؟

–.....

– امشي يا بنت الحلال..

ثم أمسك بيدها وأخذ يجرجرها..

دارت السيارات العسكرية المدججة بالجنود الإسرائيليين.. تطوف أنحاء خان يونس ومخيمها.. تعلن حظر التجول.. وأن من ســـيخالف الأوامر ســـتطلق عليه النار فورا.. أقيمت حواجز على مفترق الطرق.. فيها نقاط تفتيش دقيق.. للنساء والشيوخ والأطفال والرجال..

من عند نقطة تفتيش مر وهو يجذبها غير آبه بالجنود..

– قف!! صاحوا به..

ابتسم الشيخ وعاد إليهم والعجوز معه..

في أذنها همس.. فدائيون.. فدائيون نحن.. ابتســـم.. يا ليت يا ليت شـــبابنا يعود ونصبح فدائيين..

جرت إجراءات التفتيش الدقيق.. اطلعوا على الهوية.. العجوز فتشـــوها.. أمروهما بالتحرك ومغادرة المنطقة بسرعة..

عاد الشـــيخ يقول لها وهو يهز رأســـه بحســـرة.. فدائيون.. نحن فدائيون يا ليت يا ليت.. يا مرحبا بالموت لو نقدر.. أتعرفين يا حاجة نفســـي بماذا..؟ نفســـي "أطخ" جندي من أولاد الكلب.. وبعد ذلك أموت!... أولاد الكلب يريدون أن يذلونا".

ســـارت معه.. لا تســـمع ما يقول.. لكنها كانت تفكر بالعودة إلى الجامع لترى القتيل.. ألحت على ذهنها.. الفكرة... ثم طردتها من ذهنها.. حينها استشهد والدها واستقبلت أمها وحماتها نبأ الاستشهاد بالزغاريد عاد رفاقه يحملونه على أكتافهم... يلفونه بقطعة قماش ملونة.. تذكرت الألوان... ســوداء... بيضـــاء.. خضـــراء.... حمراء.... وتذكرت جنازته كم هي مهيبة.. مات ويده على الزناد... يصد مع رفاقه هجوما شنه الصهاينة على قريتهم التي طردوا منها.

أخذت الحركة تهدأ.. وسألها الشيخ.. أنا ذاهب إلى معسكر خان يونس ألا تسكنين هناك؟... سارت معه في أزقة المعسكر اللاجئية الضيقة... ثم تذكرت أنها اجتازت

بيتها الذي وهبته لها وكالة الإغاثة.. سحبت المفتاح من صدرها... أحست كأنها استلت من صدرها سيفا تقتحم به عالما مجهولا... أمسكت المفتاح الذي طوله طول شبر بيدها... وقبضت عليه بطريقة مسدسية وأدارته في قفله.. ثم أمسكت عن فتح الباب.

ندهت على ابنها... بصبصت من عين القفل.. من هناك؟.. ثم ألصقت أذنها بالباب.. هي تسمع صوتا ما.. كان وجيب قلبها مرتفعا.. من هناك.؟!
ثم فتحت الباب بسرعة واندفعت داخل حجرتها.. دارت داخلها مرتين.. ثم وقفت ساهمة.. ماذا بها.؟ نظرت من نافذة حجرتها.. أحست بانسحاق الحركة. الناس في بيوتهم.. لكن أرجلا تركض بخفة ونشاط تنتقل من زاوية إلى أخري..
التفتيش عم المنطقة بأسرها... أوقفوا آلاف الشباب والشيوخ والأطفال والفتيات واختاروا مئات المشبوهين.. جريمة وقعت.. أبصار عيونهم سلبت... لا بل عيونهم فقئت فلم لا يحجزون أكبر عدد من الناس ليعرفوا الفاعل.
بين السكان طار النبأ.. أسعد قتل عند باب الجامع.. رصاصات مزقت أحشاءه وأخرى شطرت جمجمته.. سلمت يدا الفاعل..
كانت تريد أن تعرف ما يدور حولها.. الجيران يعرفون.. لكن أحد لم يقل لها. حظر التجول شل قدرتهم على التحرك أو النطق.
صوت سيارات تمخر في عباب بحر الصمت.. وينطلق زامور قوي يعلن وجود قوات الاحتلال هنا، كما أعلن عند باب الجامع... الصوت يقترب.. أحست العجوز أن الصوت قرعات تصم الآذان.. الصوت يؤذيها.. يتحداها..

ألقت نظرها عبر النافذة.. لترى.. قذفت عيونها.. لترى.. كان طابور السيارات طويلا.. لم تميّزه أول مرة فاعتلت الطبلية وألقت ببصرها على امتداد الأفق... رأت مجنزرات وسيارات جيب تعج بالمسلحين... عليها نجمة سداسية... سيارة جيب

عليها علم أزرق في وسطه نجمة... فركت عينيها.. ورأت سيارات إسعاف تتوسط هذا الموكب.. ماذا يريدون منا؟.. هل تركوا لنا شيئا..؟ جاءوا ليفتكوا بنا..!

أخذ الموكب يقترب.. وكأنه يقصد نسف بيتها.. هكذا تخليت فأحست بالنشوة وبسعادة تجتاح جسدها الضئيل.. التفت المدرعات والسيارات حول البيت وسمعت دقات حقيقة على باب بيتها فلم تجب... دقات أقوى..

– من هناك؟

– أنا المختار يا أم أسعد.. افتحي..

المختار.. جاء معهم.. أي ويل جاء به المختار..؟ ها قد ينسفون بيتي.. المختار جاء لينذر.

لكنها فزعت. إن بباب الجامع قتيلا..

– ماذا هناك؟ صاحت أم أسعد: إبني.. أسعد يا مختار.؟

– افتحي يا أم أسعد..

فتحت الباب.. كان المختار واقفا بجواره إسرائيليان لا تعرف رتبتهما لكنهما بالتأكيد ضابطان،وجنديان يحملان على نقالة إسعاف جثة..

أبوها حينما جيء به.. كان ملفوفا بعلم.. زغردت أمي حينما مات قالت عنه شهيد في سبيل الله والوطن..

قال المختار: ابنك يا أم أسعد ما..

قاطعته.. مات.. مات.. ويحمله اليهود على أكتافهم.. ابتسمت، كان الجنود قد دخلوا بالجثة إلى ساحة البيت الصغيرة.. عزفت موسيقى جنائزية.. أدى الجنود التحية.. تحدث ضابط إسرائيلي وقال بعربية ذات لكنة.. سوف نعرف الجناة.. سنحاسبهم.. لا تحزني على ابنك سنعوضك كل ما خسرتيه.

نظرت إليهم.. كانت عيناها تذهبان يمينا ويسارا.. لا تستغربي.. كانت الجثة بنعشها أمامها.

أخرجوه من هنا.. أخرجوه من هنا.. صـرخت بجنون وهي تبكي.. كشـف المختار عن وجه القتيل.. قال: أم أسعد إنه ابنك.؟

كان المنظر مخيفا.. هو ابنها حقا.. لكن تسـاءلت فيما إذا كان ابنها يأتي محمولا على أكتاف جنود الأعداء.

– ابني.. من قال يا مختار أن هذا ابني.. هذا ابنهم.. ليس ابني ليس ابني.. أخرجوه من هنا..

الضـابط وقف مستغربا.. هو ابنك أيتها العجوز.. هو ذا أسـعد.. وأمه أنت.. أنت أم أسعد.. وابنك أسعد جئناك به..

– لا .. ليس ابني.. ابني مات منذ ثلاث سـنوات.. مات اسـعد منذ أن عرفكم.. اخرجوا.. اخرجوا..

هز الضـابط رأسـه مسـتغربا.. المختار لم ينبس ببنت شـفة.. دمغات نزلت من مآقيه.. "اخرجوا .. اخرجوا".

أمر الضابط بحمل الجثة.. فحملوها..

سـار الموكب وزامور الخطر .. توت..توت..توت.. ثم انخرطت أم اسعد في بكاء مرير ونشيج متصل.. يعلو صوته صوت زامور الخطر..

نيسان – إبريل 1971

لغة الرشاش

(إهداء: إلى روح الشهيد إبراهيم النجار الذي استشهد دفاعا عن أرضه في جبال رام الله.)

ظننت للحظة أن بإمكاني أن أبتسم وأشعلت سيجارتي وتصاعد الدخان وهو يطير في عصبية هوجاء.

أمضيت بعض الوقت مشتت الفكر.. ماذا أصنع ورشاشي كل ما به يمكن تفريغه في لمح البصر والأوامر مشددة، لا تطلق النار.

أنا لا أطيق الصبر حينما يواجهني العدو.. فآثرت الانزواء في سفح الجبل حيث باستطاعتي أن أراقب تحركات العدو.. ومن بعد كنت أشاهد الغارات على المدينة والنيران تلتهمها حتى استحالت المنازل إلى خرائب وأطلال.

وابتدأت بقايا أشعة الشمس في الانصهار وغرق قرص الشمس الذي يحول دون إنجاز مهمتي في الأفق.. ومن على الجسر ترامت إلى مسامعي "صفرات" خفيفة أفزعتني لأول لحظة ثم أخذت موضع الاستعداد ورشاشي بيدي لأطلق النار فورا رغم الأوامر المشددة.

فتقدم جنديان يحملان رشاشين على الجسر كانت خطواتهما تلائم بإيقاعها الصغير وكلما تحركا إلى الأمام خطوات، ازدادت دقات قلبي وعلت أنفاسي.. وأردت أن يعترف الجنديان بوجودي ولو لحظة..

– الأوامر مشددة.. مهمتك المراقبة.. لا تطلق النار..!

وهل أطيق المراقبة ثلاث ساعات وأعدائي يتبخترون على ارضي.. جبناء... هكذا قال لي والدي.. كان يتكلم وعيناه فيهما بريق الفخر..

– أين أنتم يا شـــباب اليوم من شـــباب زمان؟ كان الواحد منا يرعب مائة ولم يكن أبى راغبا في أن يصـــــدق أن بإمكاننا نحن شـــــباب اليوم أن نقوم بمثل ما قام به شـــــباب زمان وحينما كانت الغارات كأمطار جهنمية تعصـــــف بالأطفال فيموتون ولعبهم بأيديهم.. وعجائز يهلكون وهم يتمتمون بأدعية إلى الله.. وكثيرون من أهلي وأصـــــدقائي ماتوا.. أدركت أن الموت حقيقة هو اســـــهل شـــــيء يمكن حدوثه.. وأحسست في وقفتي هذه برغبة جامحة أن أعتلي قمة الجبل وأصيح بأعلى صوتي واغني ورشاشي بيدي فلا تتصور ماذا يمنحك مدفع رشاش، انه لا يعلن عن ذاتك فقط بل يعلن التحدي.

والجســـر الذي أقوم بمراقبته من هنا.. هو الطريق الوحيد إلى المدينة وإلى المنطقة كلها. كانت دورية تحرســه، وبعد لحظات تكاثر الجنود.. اثنان.. ثلاثة.. خمســة.. وازدادوا.. كم عددهم..؟

ينطقون بكلمات كنت أميز بعضــها.. ألفاظ بذيئة وشـتائم.. وتعالت ضـحكاتهم ولم أتذوق لها أي معنى فبلعت ريقي.. كان حلقي جافا واجتاحتني ســورة من الغضــب ضـــحكاتهم الوقحة، ووجودهم الدنس يســحق كياني. يحيلني إلى ذبابة.. وددت لو أضـرب بالأوامر سفح الجسر.. الإنسـان في لحظات يكون اسـهل ما عليه أن ينفذ رغباته دون أن ينظر إلى أوامر أو نتيجة.. قائدي نفسه لو كان في موضعي لأفرغ رشــاشــه منذ زمن واســتراح من مرأى عدوه يضــحك ملء شــدقيه الكريهين وقدماه ثابتتان على أرضنا.. الثواني تمر ببطء تافه .. (عيوني) تراقبهم.. يتزايدون.. جلس أحد الجنود الصــهاينة وتمدد آخر.. بينما ظل الباقون يثرثرون وتتعالى ضــحكاتهم أنا فتغطى على وجيب قلبي.. وآنا يســود صــمت محرق.. شــيء واحد كان جديرا بتمزيق هذا الصمت.. مدفعي الرشاش لا غير..

تساءلت ماذا لو القوا القبض علي الآن.؟

– جرذ في مصيدة.. إنسان لا جدوى منه أو من رشاشه.؟

كانت فرصـــة رائعة لأحول قهقهاتهم إلى أنات.. أعدهم.. واحد ثلاثة أربعه إنهم لا يدرون ما يخبأ لهم مدفعي الرشـاش.. وثارت في نفسـي نشـوة غامرة.. لو ضـغطت على الزناد وقتلتهم.. عددهم على الأقل عشـرة والظلام سـتار يسـاعدني على الفرار بين الأشجار.. ثم سيقول الناس يا له من بطل.؟

وأحسست بخزي من نفسي لأني وضعت البطولة فوق الأوامر.

ورغم كل شيء كانت أوامر القيادة جدارا تتحطم عنده آمالي..

طلقة واحدة في الهواء أيتها القيادة كافية لأن تبلل ســـراويلهم.. حاولت أن التقط أنفاسـي التي كانت أسيرة المشـاعر الفياضـة.. ماذا سـأقول للرفاق حين أعود إليهم؟ دورية كل بضـــع دقائق عددها يزيد عن عشـــرة جنود.. يثرثرون.. ثم يقهقهون.. ثم يصـمتون.. تمرّ كل بضـع دقائق بعض السـيارات العسـكرية يوقفونها.. ثم تمر.. أهذا ما أقوله لهم.؟

يا لتفاهة الموقف من بعيد كانت كشافات لعربات ثلاث قادمة تنير الطريق، وترتمي الأنوار على الجانبين. انكمشت خلف صـخرة أراقب من خلفها، توقفت جميعها عند الجسر.. كانت تابعة لجيش الدفاع الإسرائيلي..

تواريت خلف الصـخور.. ثم نزل من العربات أشـخاص عديدون سـمعت جلبة بين الجنود.. أحسست أن قائدا هاما قد حضر.. بلمح البصر كانت الدورية قد اصطفت لتحية القائد وسرت بأعماقي نشوة أنعشت فؤادي من الطرب والزهو.. هو ذا صيد ثمين..

– أفرغ رشاشك واسترح.. فرصة رائعة لصيد ثمين.

كانت أنوار السيارات ما زالت مضاءة.. استطعت أن أميز من بعيد ثلاث ضباط لا بد أنهم ذوو مكانة عالية.. ســأركز رشـــاشـــي نحوهم. وأفرغه إلى مالا نهاية.. قد انتهي قبل أن يفرغ الرشـــاش.. ســـريعا تتالت في مخيلتي صـــور الأطفال الأبرياء والشـــيوخ والأبطال الذين اســـتشـــهدوا وكلمات أبى الفتية.. وفوق كل شـــيء وطني الجريح.

ثم صـوبت رشـاشــي نحو الضـباط الثلاثة.. فتحرك أحدهم.. أتهرب أيها اللعين.؟ ووجهت رشـاشــي نحوه.. انتظرا أيها الضـابطان.. ثم عاد الضـابط إلى صـاحبيه فضغطت لحظتها على الزناد.. انطلقت الرصاصات تمزق الصمت.. كانت بالنسبة لي غنوة إلهية توقظ سكون الليل من سباته فوزعت نيران الرشاش على الجانبين.. لم أعرف كم قتلت.. أفرغت رشاشي في ثوان.. ورحت أتسلق الصخور وأنا احتمي بين سيقان الأشجار من النيران التي كانت تتصيدني.

ظللت أركض مع أنى شعرت بسخونة تسير بانسياب في فخذي وتمتد في خطوط طويلة.. وأنا اركض بنشـاط، أركض، حتى وصـلت أطراف المدينة فاقد الوعي لم أدر عن نفسي شيئا.. وفي صباح اليوم التالي فتحت عيني وأنا أتمتم. كم قتلت.؟ كم قتلت؟

كثير يا بني.

ولاذت أمي بالصمت..

ثم صرخت "أين أنا؟.."

كان أبى بجانبي فربت على كتفي.. وقال أحضـــرك رفاقك إلى هذا الكهف، كان الكهف معتما ورطبا.

استطرد والدي إنهم يبحثون عنك في كل أنحاء المدينة..

– هل ماتوا جميعا؟!

وابتسم أبى نعم..

وساد صمت.. وأغمضت عيني.. ثم تلمست موضع الجرح..

– هل تظن أني قمت بعمل كبير.؟

– وهز رأسه وابتسم.

– لكنني خالفت أوامر القيادة.

– عمل بطولي يا بني.

كانت يا أبى لحظات لم اشــعر بمثل جمالها، حينما تكلم الرشــاش، كانت له نغمة أخرى ليســت كالموســيقى أو الغناء أو صــوت حبيبة.. إنه أجمل بكثير.. كانت فرصة وصيداً ثمينا.

كم قتلت لماذا لا تقولان لي؟

وابتسم مرة أخرى وربت على كتفي:

– استرح الآن من أجل رشا على الأقل.

– أين الرفاق يا أبى أريد أن أراهم.

– يقومون بواجبهم.

– أبى حينما تكلم الرشاش كنت في دنيا غير هذه الدنيا.

– "نعم نعم" قالها وهو يهز رأسه.

وخرج أبى. وأمي جالســة بجوار رأســي.. ســرحت قليلا وذهبت في ســبات عميق وأحلام جميلة لم استفق منه إلا بعد ساعات طويلة من نوم لذيذ.

أيلول –1967

الطريق يتجه نحو الغرب

مدينتنا لا نبض فيها لحياة. وأنا بها منفي.. جئت طوع اختياري، تركت بلدتي من الجبن.. لقد حلت اللعنة.. يا أجراس البؤس لا تتكلمي.. نوحي على الملائكة الذين دفنوا رؤوسهم في التراب.. حانت أيام اللعنة. أيتها الأجراس لا تتراقصي. كفي عن النباح انك تصـــمين أذني.. أما أنت أيتها الراقصـــة هزي أردافك أكثر من اجل السيد.. والسيد يقول أيتها المياسة الفاتنة قدك جميل متناسق، منتظم كاصطفاف حرس الشرف عند التفتيش.. رقصك يشجيني.. غني لي..

– يا سيدي إنها لا تجيد الغناء.

– إذن أريد غيرها.. لتكن أجمل منها..

السيد في عنان السماء.. لكن السماء تمطر نارا.. السيد يغضب.. السماء تمطر غضبا.. يا سيدي خاتم سليمان بيدك والنساء في عالمنا برخص التراب.

– إذن ايتوني بغيرها أيها الصبيان.

– أيتها الفاتنة لماذا عيناك مرهقتان؟

يا حبيبي كنت في دور تمثيلي.

– وهل التمثيل متعب.؟

وهزت الممثلة رأسها.

السـيد يظن أن التمثيل شـيء هين.. حقا.. لأننا كلنا في دور تمثيلي نحيا، وأكثرنا بؤسا ذلك الذي يعيش والناس من حوله كلهم يمثلون.

– أيتها الممثلة شفتاك ريقتان.

– من أجلك أيها العزيز.

– أردافك ممتلئة.

وصـــمتت الممثلة وأخذت تداعبه.. وأناملها تتخلل شـــعره.. ثم همســـت في أذنه أصـحيح أن النصـر لنا؟. وصـاح السـيد بكل تأكيد، فأجابته الخصـم أقوى منا.! فانتفض من السرير غاضبا.. نحن أقوى بلا شك.

ورفعت ســاقها قليلا قليلا فبلغ ريقه وعاد إلى جانبها مســترخيا، وقالت ســمعنا أن عندهم طائرات كثيرة.

فأجاب ونحن عندنا أيضا.. وطبعت على شفتيه قبلة وماذا عندكم؟.. ودارت كؤوس الخمر..

* * *

اللعنة عليك أيها الســاقي دارت في رأســي عربدة مجنونة.. من رائحة خمرك على بعد مئات ومئات الأميال.. ســـكرت من الرائحة أنا الذي أعرف الله "الله يا بني يحفظك ويرعاك من الحرام وأولاد الحرام وبنات الحرام".

دخلت رائحة الخمر عيوني– شـرب الخمرة وبيعها حرام.. حرام أن تنام مع سـاقطة لكنه شيء لذيذ.. أنت لست سيد.. الخطايا تكفر.. عصرنا عصر تكفير الآثام.

– للسادة فقط..

أيها المساء لا تنضب دع الظلام يمتد أكثر فأكثر .. فالسيد ما زال ينام، لا تزعجه بذهابك.

أما أنا فأدور.. أشم رائحة الخمور.. والنساء المصلوبات على الأسرة.. لكنني دونما جدوى أتعثر في المســـير.. قد كان لي من زمن ذكرى بطولة.. أيها الأبطال لا تخافوا. الجبن عار.. اضربوا بالنار لا شيء كالموت..

يا ســيدي رصـــاصـــكم دخان.. وعدت أدور في المدينة.. مدينة اللاجئين والتلال المجللة بصمت مرعب.

رصاصكم استحال إلى بصاق في وجه القديسين. وأنا ملعون.. والملاعين كثيرون في عصرنا.. ملاعين المنفى.. والملائكة الذين دفنوا رؤوسهم في التراب.

الملاعين كثيرون ، كثيرون جدا.. أما الأنبياء فما زالوا يمســـحون عن عيوننا شـــقاوات أيامنا.. في المدينة الميتة التي احتضـــنت اللاجئين مرغمة، حين زارني النبي وقال:- حاول أن تســـير في الطريق الغربي، وأنت رافع رأســـك، اســـتغربت زيارته وكلامه.. ومشى,.. لم أكن أدري أنني أسير ورأسي مطأطئة.. ولا اتجه نحو أي سـبيل.. وحاولت أن ارفع رأســي لكنها كانت مثقلة.. ها قد حلت اللعنة. سـرت في ذات اليوم في جنازة جارنا العجوز القديم في بلدتنا الغريبة.. كانت جنازته في المدينة حفنة من الرجال.. أقل من المقام.

- من مات في المنفى عليه اللعنة.

يا أيها الإنسـان تخلص من مشـاعرك، ودع الآلام تبارك خطوك، فالمسـيح صـلب منذ زمن.. لا تنس ذلك أبدا.. أرضـه مصـلوبة أيضـا من شـمالها إلى شـرقها ومن جنوبها إلى غربها..

لكن العيون بلا كلام.

* * *

والصـمت يغرق في الصـمت بلا معنى.. والوجوم يخفى في الوجه علائم البؤس.. المسيح صلب منذ زمن.. لا تنس.. مصلوبة أرضه... لا تدع النسيان يتكلم.. أنت في أرض المنفى.. انظر خلفك.. الصـلوات تتلى حتى تصـل السـماء.. أما اليوم فالجيب ممزق والنقود ثقيلة إلا أن جيبي لا يحتوي النقود.. في المدينة المنفية.. غذاؤنا الزيت والزيتون والزعتر نعمة.. خير نعمة.. تكفي حتى اللقمة.. جع حتى تمحو اللعنة.. اللعنة في فوهة زجاجة خمر معتقة بين شـفتي فاتنة ممثلة.. النسـاء ساحرات.. مصمص شفتيك..

يا بني:- الله يبعدك عن أولاد الحرام وبنات الحرام.

أبي مات بأرضـــــه.. كان ثائرا إذا جاز إطلاق هذا المصـــــطلح الحديث على المجاهدين، ذاق طعم الجوع لكنه مكان بمذاق آخر.. وذاق طعم الموت لكن اللعنة لم تحل عليه.. مات حيث لم يشم رائحة خمر السادة، أو لفائف تبغهم المحشوة، أو لحم النساء الرخيص.. كان يقايض بمتعته بسهرة في ليلة برد قارس في الجبال.

أما نحن جيل المنفى جيل اللعنة التي هبطت علينا في أيام ست كما خلقت الأرض تماما هي لعنة إلهية جديدة.

أيها المخلص بك سـنمحو اللعنة.. المخلص يشـكو من الملائكة الذين من حوله.. فعمت من احبهم اللعنة.

أيتها المدينـة الميتـة.. أيتها المنفى التي تقبر المشـــــاعر.. ويخنق الارتباطات.. لنســـتحم من بركان الخطايا.. ما عاد لجيل الملائكة جدوى.. ونحن لماذا نهرب؟.. يا لبؤسنا نفي اختياري نرتضيه لأنفسنا.

– أصـابتكم اللعنة في كل سـماء وكل كتاب.. صـوت سـماوي يخاطبني ".. مت كموت أبيك، احضن تراب الأرض، واعتصر منه الشراب".. التراب.. غالي الثمن.. الملائكة مرغوا رؤوسهم بالتراب.. أيتها الممثلة أردافك جميلة.. الثمن غال وللأسياد فقط.

موتي بغيظك موتي.. انطفأت شـعل المجد اللامجدية.. ضـاعت القشـور الذهبية ومرغت الملائكة رؤوســها في التراب ومضــغت الحشــيش والتبن كالبهائم، ودقت أجراس اللعنة عليك وعليهم.

أيتها الممثلة نحن الملعونين: الممثلات والملائكة والمنفيين. ســـرنا في طرق ثلاث وعند مفترق ثلاث طرق كانت جدتي تقول:

(وسار الشاطر حسن ثم سار حتى وصل ثلاث سكك.. سكة السلامة وسكة الندامة وسكة من يدخلها لا يعود منها أبدا).

وتســـابقنا على الدخول. الممثلات وقفن على باب الســـكة التي لا يعود داخلها، ودخلت الملائكة معهن.

أما نحن المنفيين فدخلنا سكة الندامة.. سرنا طويلا.. وكان علينا ألا نسير وألا نتحرك.. ثم نعيش ساعات نمضغ الكلمات، لهونا لا شيء سوى الثرثرة..

– أيها المخلص تحرك. اضرب ضربتك..

يا للزمن القاسي في هذه المدينة الملعونة.

* * *

في هذه المدينة التي يحكمها أولياء أحفاد الأنبياء.. احترقت دموع غزيرة تكفر عن سكة الندامة.. وعن اللعنات.. طوى الشارع صمت مغرق.. عيون النور لا تتكلم.. حتى صوت العربات أجهض.. نباح أقدام السائرين أخرس..

أما أنا فكنت أسير والشتاء بليله الطويل يئن من آلام الصمت. الرعد يصرخ في وجهي حلت عليك اللعنة أيها المنفى.

– أيتها السماء ارحميني كان أبي ثوريا..

ورنت الضحكات السماوية تضرب جوانب الصمت في شوارع المدينة.. أبوك ثوري.. ومن أنت؟. فارس جبان.. منفي..

– أيتها السماء خلصيني من خطاياي.. لن أظل وحيدا في هذه الأرض.. مات أبي في الجانب الآخر وأمي عجوز لم تقو على السير ولم تترك بيتنا الغربي.. وهل أجد هنا اللقمة كي أبعثها إليها.؟

أيها المخلص ألم يحن وقت زوال اللعنة؟.. أريد أن أموت كي اطهّر رجس لعنتي، أيتها المدينة الكبيرة، ما زلت أجوب الشوارع الفقراء فيك.. والناس صخور عيونهم عيون دمى.. كلماتهم جوفاء:– "ثوريون نحن.. النصر لنا إذا تكلمنا".

أيتها الكلمات العظيمة لا تخرجي من أفواه الجبناء.. فهنا يقايضون بطعام المنفيين.. يسرقونه.. باعوا اللحم المعلب والبطاطين.. موتوا جوعا، موتوا بردا، أيها المنفيون. وسادتنا في قصورهم لينعموا بالا.. اللعنة على الفقراء.. أيها البؤساء لا

تتكلموا ليس لكم أي حق، هذا ما قاله سيدي.. ولثم نواب الفقراء يد سيدي.. سرق البطاطين!! يا له من بطل.. أكل طعامنا.. باع أرضنا.!! يا له من بطل.
الصمت لأشجع الشجعان.. "وأقفلوا فمه بزمردة كبيرة".. يا سيدي يا حارس المدينة.. هاها.. قد صنعت المعجزات.. ما ذنبك أنت؟ كانت السماء قد صبت لعناتها.. أما لعناتك السماوية فكانت لا تستطيع المقاومة لا تملك أنت سوى إحدى عشرة لعنة..
(الله يلعنك ويلعن أبوك ميت لعنة).
أيها المخلص إننا على بعد مئات الأميال..
نرقبك، نموت غيظا من هذا البطل المزعوم.. القط المستأسد.. احرقونا.. أو احرقوه.. أو دعونا نحرقه.

* * *

قال صوت من الجامع الكبير:-.. وأنت تحدث'، تلفت ورائي باستغراب.. صوت من المخيم يقول:-.. وأنت تحدث.. الساعة في الميدان تقول:- تحدث.
الأطفال يقابلني ويصفقون ويقولون من أنت؟. تحدث..
أنا لا أكذب.. هكذا بدأت كلامي.. أعيش هنا بلا عيون أو لسان.. في مدينة.. عيونها الرياء.. أيامنا تافهة نأكل الكلام.. ونشرب الثرثرة.. وننهش لحوم بعضنا وحين ننتهي.. نهتف يحيا المخلص.. أما أيدينا فخالية الوفاض طرية، محرّم علينا أن نمسك قلامة أظافر لأنها قاسية.. وسيدي أظافره طويلة.. باعنا ليشتري المانيكير لأظافره.!
الصوت يضرب في أعماق ذاتي.. من نفي نفسه عليه اللعنة.. أبوك مات في الجبال.. وأنت تسير في شوارع المدينة بلا خجل.. عيونك ترقب الفتيات تلعق ظهورهن، تنهش سيقانهن.. والناس في الجانب الغربي خلف مدينتكم الميتة يأكلون البقول ويمسكون الفئوس ويذكرون اسم الله، إذن احرقوا حكمكم وأمثالكم.. أبي ثوري

تقول أمثلتكم:.."الآباء يأكلون الحصـــرم والأبناء يضـــرســـون، ماذا أكلت يا أبى؟.. جسدك ذراته عصير برتقال وليمون.. وأنا امتزجت بالاغتراب واللعنة، أيتها المدينة اقفلي أبوابك.. أم أن ســـور اللعنات يحميك.. ادفنوا أطفالكم أيها الرجال بعيدا عن اللعنات.. في الجانب الغربي يذوق الرجال الموت.. الجوع يذوقون الأطفال، ألا انه زوبعة من نار. فتيان
يتخطون ضفاف النهر لكنهم إعصار.

* * *

لكن المدينة لا تنطق.. أخرســـت الســـنة الكلمات منذ بداية الرحيل.. الســـيد.. والملائكة والممثلة.. وسيدي.. واللعنات، كلمات تحمل للمدينة دلالات.
وها أنا أســير في المدينة.. أنظر إلى المســجد.. فأرى ســاحة المدينة.. شــوارعها جبالها.. وأسير وكأني في طريق لا نهاية له.. يوقظني صوت المؤذن الله اكبر الله اكبر.

* * *

زامور خطر عســكري ظننته لســيارة إســعاف.. قدمت تحمل فدائيا جريحا.. رأيت الحياة تموت فجأة.. الجند يتحركون.. الشرطة تنهمك في أداء دور ما، زامور جديد يأتي.. ينعدم لهاث الســيارات.. تكف الأرجل عن الحركة.. تراقب الدراجات النارية على الصــفين والعربة الأمريكية الفاخرة مقفلة الأبواب، زجاجها لا يكســر.. ورقابنا أعشاب برية تكسر ولا تجبر، سيدي في الموكب والحراس على الصفين. اعزفي يا موسيقي العار.. ضـاعت صـلواتنا دونما حراسـة.. بيع ترابنا في زجاجة.. وأسـملت عيوننا دونما التفاتة.
ابصـق في وجه المولى.. أيها الجبان ابصـق لا فائدة من وجودك.. منذ زمن حلت عليك اللعنة اغسل عارها.. ابصق.. اقتل نفسك تحت عجلات العربة الأميركية.

لتسقط يا يا مو..

أيها المخلص قلبنا لم يعد به نبض، أضـــحى له صـــراخ الثكلى..اقفل فمك.. لا تصـرخ.. يا عار المنفيين لن تغسـل.. ليسـقط سـيدي أيتها الملائكة انتحري سـواد عينيك أضـحي عارا.. أيتها الممثلات اقبلن.. سيدي يعشق الممثلات أيضـا.. يدفع الثمن كالملائكة تماما.. بل واكثر فهو سيد أيضا، لكنه سيد الأسياد..

* * *

هتفت أيتها المدينة اسقيني جرعة ماء تبل ظمأ منفى.. بلا إجابة ظلت المدينة ترنو إلى .. المدينة ظلت خاوية بلا ضـياء أو هتاف.. الجدران تنطق بدلا من البشـر.. والملصـــقات كانت قد غطت أجزاء كثيرة منها بألوان مختلفة الحمراء والخضـــراء والصفراء والبيضاء..

والشوارع الطويلة المتعرجة تندفق بسيولة غير مألوفة نحو الغرب.

والأضواء ظلت كابية لا تريد أن تسطع ريثما تغسل اللعنة.

ســـرت نحو بيتي في هذه المدينة.. إلا انه كان قد ضـــاع أو انه دفن مع رؤوس الملائكة، وظللت أدور في شوارعها.. لكن اللعنة لا تحمي إنساناً.

اصـطدمت بعمود النور.. ذهبت في غيبوبة الصـدمة.. وهبت ريح خفيفة، في لجة ســبات عميق غرقت.. حلمت بســكة الســلامة التي قالت عنها جدتي وبالطريق الغربي الذي أخبرني عنه النبي.. لم اكمل حلمي حيث أن الهواء الغربي اخذ يشـتد فاسـتيقظت وابتدأ المطر يتسـاقط.. وأخذ يغسـلني، ووجدت نفسـي مرتميا في شـارع طويل يتجه نحو الغرب فأيقنت أنه سكة السلامة.

تشرين الثاني – نوفمبر 1967

الخطيب

وقف الخطيب صـــامتا؟. كصـــمت المنبر الذي يعتليه.؟ ثم تمتم بكلمات غير مسموعة أني لا أستطيع أن أتحدث إليكم.. الله يقف حائلا بيني وبينكم.

سـادت فترة صـمت طويلة.. الآذان مسـترقة السـمع والعيون تحاول الاسـتفسـار.. لحظات الانتظار ساعات محرقة.

ابتدأت دمدمات وهمهمات.. تحاول سـحق الصـمت، ثم ضـرب الخطيب يده على سطح المنبر، انطلق صوت الضربة كخشخشة عبر أسلاك ناقل الصوت ليصل آذانهم؟. فساد صمت جديد لكنه ذو طعم مغاير..

وأحس الناس أن أمرا خطيرا سيتحدث عنه خطيبهم المفوه.

الجماهير وكأن على رؤوســـها الطير وقف.. وبتعاطف جماعي خيم على الموقف ذلك النوع من الصمت الذي تكون الكلمة فيه تساوي رقبة.

ثم تنحنح الخطيب.

همس أحد الموجودين بعد أن حطم جدار الصـمت.. ها انه يسـتعد ثم أجابه جاره أتخمن ماذا سيقول؟.

قال الأول أهناك مؤامرات جديدة.؟

الآخر يجيب وهو يهز رأسه.. بكل تأكيد بكل تأكيد..

فهتف الأول.. تسقط المؤامرات والمتآمرون.

انطلقت صـرخات مدوية من حناجر الجماهير مرددة تسـقط المؤامرات والمتآمرون، هتف الأول تسقط الرجعية والإمبريالية.. عاش كفاح الشعب.. فدائية.. فدائية..

رددت الجماهير الهتافات بحماس واندفاع..

ابتسم الخطيب بسمة واهنة ساخرة.. كأنه يريد أن يقول لهم هتافاتكم ضجيج صرخنا وهتفنا.. بحت الحناجر وماذا تم.؟

خطبت فيكم حتى أصبحت خطيبكم المفوه.. ثم ماذا؟ اسألوا أنفسكم ثم طرق على منبره ثلاث طرقات.. وساد الصمت.. وكأن الطرقات السنة من اللهب تلتهم كل الصرخات الهائجة أو تلعقها.

عدل الخطيب ومن وقفته، وحدث نفسه، قد تكون وقفتك الأخيرة مع جماهير أحبتك وأحببتها انه فراق صعب أليس كذلك.

ثم استعاد بعضا من شجاعته ليحدثهم.

أول كلمة.. كان يود أن ينطقها.. كيف نطقها؟ وكيف ضاعت الأخرى في جوفه؟.. وخاطب نفسه.. أنت بالنسبة لهم زعيم وبطل.. ولا تقوى على قهر نفسك.. مأساة.. مأساة.

وهز رأســـه هزات متتالية بحركات لا إرادية فدوى هتاف الجماهير عاليا.. عاش الخطيب.. عاش الخطيب.. أحس أن تلك هتافات موجهة من عدو لتطعنه في صـــميم كبريائه وشـــجاعته.. أحقا أنت خطيب الجماهير ومحبوبها.. إذن تكلم ثم نطق "اخوا..." وابتلع نصـــف الكلمة الآخر في حلقه.. قاطعته الجماهير بهتاف مجلجل!:- الصراحة والصدق سبيل الحق.. الموت ارخص ثمن.. الموت الأعداء الثورة وصرخ شخص مرفوع على الأكتاف قل ما تشاء ونحن وراءك.. اخذ الخطيب يبحث عن كلمات ملائمة تعبر عما في نفسه بلا جدوى.

أخواني: قالها بشدة وحزم.

وأنصت الجميع ثم كرر أخواني أبناء هذا الشعب..

ووصلت إليه هتافات عاش الشعب وعاشت الثورة..

"إخواني ما جئت هنا كي أثير حماسكم لتهتفوا بشعارات.. جئت هنا كي أقول الثورة في خطر..

وســـرت دمدمات بين الجماهير الثورة في خطر.. وعلت من جديد الهتافات الموت لأعداء الثورة نحن فداء الثورة.

إخواني جئت كي أقول أن الثورة في خطر، استمعوا ولا تهتفوا..

وجاء صـراخ مزمجر وماذا بعد.؟ استجمع الخطيب شـجاعته- وهو الذي لا يقاطع في خطبة أبدا- قال:- وماذا بعدّ؟ ألخصـه لكم بكلمات قليلة.. أن الثورة في خطر، الخطر يكمن في هتافاتكم وشـــعاراتكم.. أني العن شـــعاراتكم وهتافكم.. أن الثورة الحقيقة أن نبحث أيها الاخوة عن المعنى الحقيقي للشعارات.. أيها الاخوة أني العن هتافاتكم وشعاراتكم.. وعلى الأرض وثوارها السلام.

وانسحب الخطيب من على منبره فور قوله كلمة السلام.

صـدمت الجماهير وأصـابها الوجوم.. وبعد ثوان عادت إلى بعضـهم قدرة لتفسـير الأمور ماذا يعني العن شعاراتكم وهتافاتكم هل يلعننا بطريقة ما؟! حاول البعض أن يفسر واخذ البعض يتساءل:- جاء ليخطب، وهتفنا له وللثورة، وأكد انه سيتكلم عن الخطر الذي يهدد الثورة، لكنه لم يقل سوى أني ألعن هتافاتكم وشعاراتكم.

اخذ الموقف تفسـيرات عدة، البعض أصـر على أن يحطم رأس الخطيب الذي أهان الجماهير ولعنها، وآخرون تمعذورا له.

وســـار الخطيب ومدفع رشـــاش على كتفه إلى قاعدة رقم (14) في أغوار الأردن والبذلة الترابية وقبعته تحت إبطه وكرر اللعنة ثم اللعنة..

شباط – فبراير 196

الصمت موت

لا تناموا...

حسن، لقد استيقظنا، ووضعنا كل شيء في مكانه، ومشينا ، طرق هذا المعسكر قصيرة، لكنها محصورة، ونحن الجنود نعيش في رفاهية نأكل البسكويت، وننام بدون ضجة، لا نصنع شيئا سوى الطوابير.

– استيقظوا..

– وركلني الشاويش بقدمه– نومي ثقيل، تعرف هذا أيها الشاويش، وركلني ثانية.

– لماذا استيقظ.

– الطابور ثم الإفطار اغسلوا وجوهكم، احلقوا ذقونكم، لمعوا أحذيتكم، سيروا اليوم وأعينكم إلى السماء.

وانطلقت في أعماقي قهقهات مكتومة، اليوم فحسب أسير لمَ؟

يقولون سيدي قادم .

– من؟

–سيدي قادم.

– لا بل مولاك أنت.

– اخرس لا تتكلم.

ثم خرست.

أيها الشاويش وماذا نصنع لسيدي.

فأجابني الشاويش بغمزة هي الأوامر...

الأوامر في معسكرنا تسير بنظام اعتيادي علمونا النظام.. علمونا الكلام لا شيء سواهما سيزورنا اليوم – يزورنا النبي–. مرة واحدة إذن اخلعوا أرديتكم، أقنعتكم أيها الجبناء سيدي قادم.

– موتوا ماذا صنعتم.. أتخشون العار.. لا ليس عارا.. لا تخشوا فالعار هناك في المقهى حيث سقطت جدرانه، وضربات الساعة تقول الموت للأطفال والأبطال وللعاهرات في سوق المحال.

وضاعت بسماتي وصمونا بالعار وأنا أتمنى لو نستطيع أن نجعل من السماء ساحات للأطفال يتقاذفون بها كرة القماش.. اخلعوا أقنعتكم من أجل الأطفال.

الأطفال زينة الدنيا هكذا كانت تقول أمي رحمها الله. قبل أن تموت أوصتني بشفتين مزمومتين "يا بني ضع سيفك في الطين ولا تهتم".

يا أمي سيفي ما زال مشرعا ينتظر مسيرة الطين لأضعه بها.. وقلبي يأكل الفتات يسرق النغمات.

– عيناك يا حبيبي نجمان... أنت يا حبيبي بسمة.. ورده... أنت المحال.. أنت الرجل في ساح النضال.

– النضال؟. أنتم بؤساء.. وابتسمت.

هرب كثيرون من التجنيد الإجباري، أما أنا فجئت وأنا سعيد بزي العسكري، إلا أن الدموع كانت تنغمس مع الآهات، وأنا أحرك رأسي بزهو على إيقاع مشي الطابور العسكري.

– لمعتم أحذيتكم.. أحزمتكم.. طابور. طابور.. شمال يمين.. شمال يمين.

حبيبتي أنت السحر والقمر، من يزرع النوار قرب الجدار.؟؟ من يحرس الأطفال؟؟ من يغذي قلبي بالحب؟؟

– لا تخش شيئا.. فالنوار ينبت رغم كل شيء إلا في الطين.. ينبت في الجبال حتى على تراب المقابر.. جدتي قبرها عششت فيه أفراخ الحمام، ونبتت عليه الزهور، رحمك الله يا جدتي: لفة القماش وبها المفاتيح الصدئة، ما زالت بيدك.

– يا بني سأفتح الباب حتى تعود يوما.

عمرك يا جدتي تسعون، وقلبك أخضر، وعيناك لؤلؤتان، لأنك متفائلة، حسن في قبرك الذهبي وضعنا سلسلة المفاتيح الصدئة.

وتكلمت عن العالم الآخر حينما يموت الإنسان، يحضر ملكان، ملك الخير وملك الشر يفتحان الصحيفة يزنان ثم يحاسبان.. السرقة حرام.. القتل حرام.. في القرية جاع الأطفال، سرقوا الفريكة من البيدر، والناطور يوميته رغيف من خبز الطابون وبيضة، والبيضة في بطن الدجاجة، والدجاجة تريد العلف، والعلف في الطاحونة، والطاحونة يا جدتي ليست ملكنا، الطاحونة مسكرة فيها (ميه معكرة)(1).

حواديتك يا جدتي لذيذة.

وصرخ الشاويش إلى اليمين در.. شمال يمين.. شمال يمين. وفي أول طابور سرته مثل هذا.. كانت عين الجارة على نوارة الشباب.

– انظروا انه كالسبع يا لروعته والبندقية على كتفه ليحرسه الله.

– لكن السبع يا جارتنا جائع، وبندقيته خشبة جوفاء، معها خمس رصاصات لو أطلقت إحداها.. آه لو فعلها أي إنسان.. لو خلع أحدنا قناعه، ليفرغ رصاصة في رأس حقيرة، عله يجد جرعة ماء إلهي في زنزانة يطفئ بها ظمأ آلاف الآلاف.

– كتفا سلاح.. جنبا سلاح.. سلام سلاح.

وبعد هذا أيها الشاويش؟!! أكتافنا (تسلخت) من خشبكم... وأطفال بلادي تضربونهم بالهراوات الخشبية، انهم لم يسرقوا أرضا.. اليوم الخامس والعشرون من الشهر، التموين بعد أيام، والدقيق نفد، ولكن أختي لا تجد من يقرضها عجنة... الأطفال لا يجدون ما يأكلونه. قالوا لنا إن في المدينة الكبرى من يربون الكلاب ويلبسونها فاخر الثياب لكنهم لا يستلمون الدقيق آخر الشهر.

وضحكت من أعماقي، الكلاب تلبس الثياب... ثم تحدرت من عيني دمعة، لم أزر المدينة الكبرى، قط، قبل أن أكون جنديا... تكلموا لي عن نسائها أنا الذي كنت أرقب الفتيات من بعد.

والمدينة الكبرى لا تعلم الحب فقط، بل علمتنا أن نكتب رسائل الحب أيضا، وأن نقرأ القصص ونثرثر في المقاهي وأن نقترض السجائر.

في المقهى... كانت جلستنا دائما، وبالأمس انتهت قصتنا قالوها ثم كرروها ألف مرة، هؤلاء هم الجنود الذين باعوا أنفسهم للساقطات.

وسقط جدار المقهى.. الموت لهن في سوق الرجال.

الحب ضاع.. ونحن الجنود لا نطيق أن نحرم من النساء... أضاعونا هنا... نعيش لنثرثر ولتأكل عيوننا ظهور الفتيات، في عصر كل يوم نرقب المارات من الطريق المواجه للمعسكر، والأطفال في بعض الأحيان يأخذون المتبقي من وراء غذائنا.

لا بأس ليموتوا جوعا هكذا قالت الكلاب المبجلة في المدينة الكبرى..

– دع سيفك في الطين ولا تهتم.

– يا حبيبي الليالي تمر ببطء. لا يطاق، ما عدت أحتمل الفراق، أين إخلاصك.؟ أين وعودك، أين شرفك العسكري.؟

– يا آنستي قائدي الأعلى داس شرفي العسكري... قايض بنا بنساء شقراوات بقطع ذهبية في بنوك سويسرا.. ودرس جدتي الوحيد إياك وبنات حواء، وأوصتني أمي أن ابتعد عن الحب، وقالت لي أن لا معنى له..

وماذا تريدين.؟

الكلاب تتمرغ في النعمة... أعدموا الحب في قلوبنا، لماذا لا تبحثين عن آخر لا بندقية معه، لن أموت وبيدي رسالة حب– فجدتي ماتت وبيدها المفاتيح، ألم تشاهدي الأطفال الذين يسرقون البيادر.... أعذرك لأنك لم تشاهدي الكلاب المبجلة في المدينة الكبرى.

– ألن تتزوج؟.

– إنك طيبة، جارتنا في البلدة تظن ذلك.. وابنة عمي يقولون:– أنهم قرءوا الفاتحة من أجلنا أمّا أنت فغنى لك قلبي... لكني أشعر بأنني سأنام وبندقيتي معي.. مكانك قف.. الهتاف موحد.. أعيدوا مرة أخرى.. اصرخوا بصوت أعلى.. لا ليس هكذا..

– تعلموننا الصراخ.. شكرا لكم.

يا أمي قلت "متى أفرح بك وأراك عريسا"... لكن العرس يا أماه قد يصطبغ أحيانا باللون القاني. لو رأيت الزفة الكبرى من آلاف الحناجر موحدة كموج البحر، عظيمة كحبك لي، ثم قال القائد أطلقوا النار على أي حنجرة تهتف بالسقوط.

وهمس أحد الجنود الموت للنعام الموت لمن يضغط الزناد...

وسرت بيننا نغمة... ماذا لو نعصي الأوامر.. لن نطلق أي رصاصة. وأجاب البعض... سنحاكم الأوامر مشددة..

– طز في الأوامر وفي اللي أمرها.

– أي والله طز فيهم.

ليسقط السيد.. يسقط السيد..

يا بني الصمت موت.

حاكمونا على المخالفة العسكرية، لكن يا سيدي الأطفال يسرقون الفريكة من البيادر وبيادرهم ضاعت من جبنكم.

سيدي يحبكم سيدي انعم عليكم بالدراهم.

– اشكروا سيدي ليحفظ الله سيدي.

أحضروا أجمل فتيات المدينة.. سرقوا خمس فتيات، والكلاب المتخمة من حوله تشم ليس الجنود فقط يغتصبون النساء، فلم أسقطوا جدار المقهى.؟ ولم يسقطوا جدران القصور ؟ وفي القصور يسهرون وهم يحاصرون النساء... أما الجنود فيسهرون الليالي في خيامهم، القليلون يحرسون المعسكر ،والباقون منهم من يلهو بورق اللعب، ومنهم من يحملق في صور نجوم السينما العارية، والبعض الآخر يقرأ لأرسين لوبين أو جيمس بوند، ويفكّرون في بنادقهم تزييتها وتنظيفها، وفي رصاصها الذي لا ينطلق.

– يا حبيبي، عيناك نجمان، أنت أملي ومناي.

المرأة والبندقية والرجل لا يمكن أن يجتمعوا على سرير واحد، وبندقيتي لم تتكلم بعد وحين يأتي اليوم الذي تنعدم فيه قيمتها سأعطيك مفتاح قلبي وبيت المستقبل.

– مفتاح البيت يا بني سيظل معي، أنا الذي سأفتح الباب حين نعود.

– لا تتعلل بالبندقية، سمعت ما قالوه وعنكم أيها الجنود، أكنت معهم...؟

بدأت أفهم بعتم أنفسكم للساقطات، أوهن اشترينكم بأبخس الأثمان، قل لي أنك ضعت وفي استطاعتك أن تحضن امرأة بلا مسئوليه أو شرف.

لا تقولي هذا.. لم نخطئ سوى مرة واحدة... لم نمنع جدتي من العودة ولم نسرق العفيفات... انك لم تشاهدي حفل ميلاد الأمير حيث كانت الموسيقى تصدح، وتصم آذاننا، وجاء سيدي ليحضر حفلة الميلاد، ووزع علينا (الشيكولاته والبسكويت)... وأكلت الكلاب اللحم، وفي قريتنا كنا لا نذوق طعم اللحم إلا في موسم الزيت، كانت تقول أمي هذه نعمة:. لتحمدوا الله على النعمة.. حمدناها يا أمنا كل لحظة، ولم نصمت..

فالجندي حسن تكلم ولكنهم أخذوه إلى السجن الكبير، ليلاقيه خبير التعذيب الألماني، وتكلم وصرخ ليسقط من باع التراب وبنى من ثمنها الصور، ليسقط من أحرق الأبطال في السجون ونهش لحوم الطاهرات ورمى طعام الأطفال للكلاب.

سجنوه وعذبوه فالصمت موت وكان لا بد أن يقولها فليس للموت فوت يا أماه.

– قولوا يحيا سيدي... اهتفوا... وحدوا هتافكم... إلى الأمام سر..

– حبيبي أني ارقب لحظة عودتك.. أيامي عذاب فكل طارق أظنه أنت.

واقبل الشاويش: أيها الجنود اصلحوا من قيافتكم سننتظر سيدي في المطار.. ومات الجندي حسن.. هز الجنود رؤوسهم بأسى وقالوا يرحمه الله البقية في حياتكم. أية بقية هذه؟.. وأطفالنا يشبون في غير تربتهم، وعمرنا قصير، وبندقيتي لم تتكلم بعد أخشى عليها الصدأ بل أخشى على حنجرتي ذلك.

اخلعوا... انزعوا أقنعتكم أيها الجنود... الجندي حسن خلع قناعه إذن حين يأتي السيد سأنزع قناعي.. واجعل للرصاصات الخمس حق الكلام.

أيها الجنود... وحدوا هتافكم.. إلى الأمام سـر... شـمال يمين. شـمال يمين.. وسرنا في انتظار سيدي.

آذار – مارس 1966

ثلاثة أيام في القدس[2]

يا عيون القمر ابتسمي.. من بوابة مندلبوم تصافحت أكف السماء، الإنسان يبكي، الإنسان يضحك، الإنسان يتحسر، الدموع تنهمر، واللقاء به حرارة غير مألوفة.
شرطي ذو لون مشرب بسمرة حنطية على جانب يتجول، وعلى جانب آخر شرطي ذو نجمة سداسية، وبينهما سلك شائك.
صرة تناول ثم أخرى، أطفال عيونهم تشرئب لتعانق بطهرها عمق اللقاء، أصوات المؤذن تختلط بأجراس كنيسة القيامة.. من بعد تصل. سأشربك رويدا رويدا، اليوم نحتسي كؤوس الخمر وننام. عيد الميلاد أهل. ثلاثة أيام.. سنقضيها بين الأهل والأحباب. نعمة تلك الأيام. سنعانق الأحباب.. وننعى ذكريات الصبا وعهد الطفولة..
بطاقات تسمع بالدخول، وأخرى تسمح بالهمسة ولنظرة فقط، ثلاثة أيام تقضونها بين الأحباب في القدس..
كل تلك الصور دارت في ذهني، إذ بالشرطي يهمس في أذني احضر لي معك سبحا من (أورشليم).. ادخل نقودا إن شئت.. وغمزني باسما بسمة معلولة، بصقت وغمغمت أورشليم.؟! نقودك ورق خريفي ذابل، أتنطق بأورشليم أنها تنام دون جفون حيث أحرقتم جفونها. دخلت المدينة وفي الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي فما وجدته، أنى أقوم وأطوف في المدينة في الأسواق في الشوارع اطلب من تحبه

---

[2] **إهداء**

إلى أحبائي هناك في الأرض المحتلة حيث كانوا يتلافون في أعياد الميلاد عند بوابة مندلبوم بحثا عن قريب أو صديق أو حبيب..

نفسي فلا أجده، وجدني الحرس الطائف في المدينة وددت أن أقول ارأيتم من تحبه نفسي؟ زرت المدينة القدسية.. أنفاسها حنونة عيونها عطرية، طرقاتها احساسات طيبة، جدرانها تغني، أطفالها يصلون. رجالها مقدسون والشرطة يسيرون بها وأكتافهم تهتز، والعصي بأيديهم دونما فائدة تتحرك إماما ثم خلفا ثم إماما، وأنا اسأل- بعيني: هل وجدتم من تحبه نفسي؟. وبلا إجابة ظلت عصيهم تتحرك، وظهورهم تصفع جبيني وكررت هل رأيتم يا حرس المدينة من تحبه نفسي.؟

هنا غرست غصنا زيتونيا منذ طفولتي، وعشت في الجانب الآخر من المدينة حيث مزقونا بشوك حديدي ومسامير قلبية.

أيها الأحباب زيت الزيتون مغذ. هل ذاق من تحبه نفسي طعم زيتوني؟!.. كبر الزيتون ونما، تساقط الثمر ثم ذوى.. الجاني من.؟ قبضت أناملي على غصن من غصون زيتوني ..

سألته:- أين من تحبّه نفسي؟ فبكى.. يا ألم الفراق.. قال لي أنا معذب.. وربتُّ عليه وعانقته.. غرست غصنا في قلبي وطرقت شوارع المدينة المقدسة، ترن .؟ ترن.؟ أجراس الكنيسة ترن. وقبر المسيح ما زال هنا؟ سأقبّله عودتي أمي ذلك.. لك جنات النعيم.. القدس مصلوبة من أجل المسيح الذي صلب بين أحضانها اصلي.. من تحبه نفسي أين.؟ من اجله أصلي.؟

الشرطي على رأسه نجمة ذات ستة أطراف سهمية.. أحضر معك سبحا من أورشليم. ومصمص شفتيه حينما رأى (العريس) يقبل عروسه عند بوابة الأحزان.. يا أختي العروس مبروك. الجنة بين عينيك كأحلام بعيدة المنال اليوم تتحقق، أنا ادخل الجنة منفردا.. أين حبيبي؟ فتحت لحبيبي خاطري لكنه تحول وعبر.. نفسي خرجت عندما أدبر.. طلبته فما وجدته دعوته فما أجابني.. وجدني الحرس الطائف في المدينة.. من أنت؟ ماذا تصنع.. ضربوني.. ضربوني.. حفظه الأسوار رفعوا إزاري عني..؟ الساعة تصيح بعد منتصف الليل بساعة ماذا تفعل.؟

هذه جنتي، جنتي وأبحث عمن تحبه نفسي.. العيون تتشابك خلف بوابة الأحزان: وسلم عليه.. وقل له اللقيا بعد عام أن شاء الله.. ادع لي في كنيسة ستنا العذراء، أمانة.. قبل الصخرة المشرفة.. زرت مسجد عمر..

عانقيني يا مدينتي من أجلهم.. زر الحاج محمد , بلغه تحياتنا.. كذلك على خطيبتي لا تنس أن تسلم.؟

الحبيب ظل يدور كالنحلة الظامئة..رحيقها جنى من القدس الممزقة على بعد خطوات.

أنت جميلة يا حبيبتي كالقدس مرهبة كجيش بألوية.. حولي عني عينيك فانهما قد غلبتاني.؟ أنت أيتها الحبيبة قدري.. والقدس جنتي المدينة الصامتة تحتضني بحنان.. ادخل بيتا.. أقول للرجل هل رأيت من تحبه نفسي.؟ الرجل مشغول بالمذياع يا مرسال المراسيل سلم عحبيبي؟. اصرخ يا سيدتي هل رأيت حبيبتي.؟ سيدتي. سيدتي، دونما التفاته ظلت سائرة بحياء غريب لكنها لا تلتفت. تكون هي حبيبتي.. لم لا في عيونك سماوات ساحرية بها همسات من عيون حبيبي.

مر طفل وبيده سبح ينادي: يا حجاج بيت المقدس هداياكم لأحبابكم السبحة بخمسة قروش، من أرض اليسوع ومريم، من أرض الإسراء والمعراج.. اهدوا أحبابكم سبحا ثم أخذ الطفل يركض.. شاهد حفنة من الناس قد تجمهروا، ركضت مثله. وأنا ألهث سألت هل من تحبه نفسي فيكم.؟ نظرت فما عرفت.. كل العيون تنظر إلي بنظرة واحدة. زرت القيامة، داخلها الأصوات تصطك بالأيقونات المذهبة وترتد عائدة إلى أعماق الداعين. وعلى خطوات يقع مسجد بناه عادل اسمه عمر.. أيها المسجد هل رأيت من تحبه نفسي.؟ بعد الصلوات المصلون ينظرون إلي بنظرة واحدة وما فهمت من نظراتهم شيئا.. هل من تحبه نفسي بينكم..؟

دخلت المسجد.. يتمتم الناس.. ربنا انصرنا.. عيونهم تنطق بكلمات واحدة وما فهمت من نظراتهم شيئا..

سـأعود إلى المدينة أجوبها من جديد.. ابتدئ بكنيسـة سـتنا العذراء حتى المسـجد الأقصى. إلى كنسية القيامة إلى بوابة الأحزان.

تمر في خاطري صـــور شـــتى عديمة الألوان متميعة.. حبيبك مات.! وفزعت، مات.! كلمة ماذا تعني.؟ أنها قد تعني كل شـــيء إلا انه انتهى.. بل قد تعني انه انتهى، لكنها لا تعني أنى لن أراك.؟ خلف هذا الســـور التقينا تبادلنا القبلات.. عددنا لذكريات.. محونا آلام الفراق.. والفراق مر ينزع سـعادة السـعداء.. وعدنا فما وجدنا الأحباء.. عدنا لنغوص في الذكريات.. فما وجدنا الأحباء.. ضـــم عينيك يا حبيبي من بعيد إلى عيني.. نورك سماوي في (الطور) قد أجدك.

بحثت في العمارات والفيلات وما وجدته. دخلت المغاور والخيام والأكواخ فما وجدته انتهى اليوم الأول.. والثاني..

أكلت من القدس الحلوى، شربت ماء من آبارها , وروتني ثم أشعرتني بظمأ ألهي لا يقاوم.. ســـأعود اليوم .. اليوم الثالث عند البوابة.. يقابلني الشـــرطي ذو النجمة السداسية.

– أ أحضرت السبح معك..؟

– لا ثم لا.؟

– إذن السجن لك أيها المهرب..

وماذا.. ليست أول مرة تلفق فيها التهم.؟

يا قدس أودعك.. ســأمر من بوابة الأحزان بلا ســبح أو هدايا انتم أيها الناس هل رأيتم من تحبه نفســـي.؟ ألقيت نظرة أخيرة على ســكان المدينة ولكن عيون الناس تنظر إلي بنظرة واحدة لم افهمها.. حينما عبرت البوابة وقابلني الشرطي ذو النجمة السداسية ونظر إلي.. استرجعت نظرات الناس في المدينة لكن عيونهم تنظر إلي نظرة واحدة وكأنها تقول كلنا أحباؤك.

كانون أول – ديسمبر 1967

كان يرتدي قميصا أحمر

أخذ ينظر إلى قميصـــي حينما زرته بالأمس، وقفت حائرا ماذا أقول له.؟ منذ أحداث أيلول وأنا أتردد في مواجهة لحظة لقائه.. لست ادري لماذا تخالجني مشاعر الإحساس بدنو الموت حينما أتذكر (أبا فريد)– وهذا هو اسمه الحركي.. ورغم أننا زملاء دراسـة، إلا أن تلك الرصـاصـات التي مزقت جسـد طفله الذي لم يبلغ من العمر ثلاث سـنوات، كانت قد مزقت في علاقتنا شـيئا ما، ظل مبهما بالنسـبة لي حتى لحظة مواجهته.. لم أذهب لأعزيه حيث لا تعزية تقبل في (أيلول). فالمصـيبة عامة وموت عبد الناصـر جاء لينسـي الجميع آلامهم وأحزانهم الخاصـة وأمواتهم أيضا.

وظللت بعيدا عنه، يغرق هو في أحزانه وأغرق أنا في عمل يومي، لا يتيح لي زيارة عمان إلا فترات متقطعة كل شـهر.. فأسـأل فيها عن أبى فريد الذي اصـبح شـديد العزلة.. كثير التفكير قليل الحديث، وإذا أخرجته عن صـمته فانه يسـألك.. كيف استطاع الرصاص العربي أن يخترق جسد طفله العربي؟..

وحينما زرته بالأمس بعد انقطاع دام شـهور عانقني، قال إنه يقدر مشـاعري الخاصـة التي جعلتني انأى عنه هذه الفترة الطويلة.. سـاد صـمت.. أحس بحرجي فبادرني بالسؤال:

كيف أحوالكم في جرش.؟

أجبته– حصار كما تعلم..

وعجلون.؟

– كذلك عجلون

هل وقعتم في فخ؟

– أظن ذلك..

ما هي خطتكم..؟

خطتنا.. تذكرت أنى سألت واحدا من المسئولين نفس السؤال فأجابني بأننا يجب أن نظل في الأرض مهما كان الثمن.

– التضحية.

افترت شفتا صديقي عن بسمة واهنة.. ثم رأيته ينتفض.. وتصيبه قشعريرة ظننت أنه مصاب بحمى شديدة. سألته إذا ما كان يرغب في إحضار طبيب عاجلني قائلا.. هي لحظة تأتي وتروح منذ فراق فريد.

سألني وهو يبحلق في قميصي.. نظرت إلى مواقع نظراته.. فأستلها كلصّ وهو يتمتم:–

– هل أدركت كيف يصبح الشعب الواحد شعبين...؟

– هل أدركت كيف يصبح القميص الأحمر دليل جريمة...؟

– هل أدركت كيف يقتل الرصاص العربي جسدا عربيا...؟

كانت أسئلته متتالية، بانفعال نطق حروفها..

– أجبني.. أجبني..

ثم قام يتمشّى في داخل حجرته الصغيرة في (مخيم الوحدات) والتي ما زال موضع الترميم شاهداً على القصف الذي أسقط جدارها..

– إرادة العملاء والاستعمار، قلت له..

لا. لا. هي إرادتنا.. أتدرى طيلة الأشهر الماضية وأنا أحاول أن أجد جوابا وكلما جئت بجواب.. يأتي سؤال آخر.. ولعلها الجدلية.. وضحك بسخرية.

ثم استطرد قائلا أتدرك كيف يقتل العربي عربيا.. بالأمس في عمان.. في كل شوارعها وجبالها ومخيماتها.. ألقي القبض على شاب يرتدي قميصا أحمر أو فانلة حمراء.. هل تساءلت لماذا يقلى القبض على عشرات الشباب؟ هل تساءلت لماذا يحمل شاب يرتدي قميصا احمر لا يتجاوز عشرين عاما قنبلة، ينتزع بأسنانه فتيل امانها ويقذفها على رجال الأمن في عمان؟. هل تساءلت لماذا؟.

حاولت أن أتحدث.. العلاقة ما بين السلطة والشعب.. ما بين السلطة والثورة ما بين الجيش والسلطة.. ما بين الجيش والشعب.. ما بين الجيش والثورة.. كلها علاقات مقلوبة، علاقات انتابتها الوهن والكلل والسقم أيضا.. هي معادلة صعبة يا صديقي بالنسبة لك أو لغيرك.

قال:

* حين انتزع منك اعترافا بالقتل هل تصبح قاتلا.؟

– تلك قضية ذات وجوه.

ضرب قدمه بالأرض.. ولكن هل تصبح قاتلا.؟ ألا تصبح قاتلا في وجهة نظر من يدينك.. أليس كذلك.؟

– بلى. بلى.

ودارت في ذهني صورة (أبي عيسى) الرجل العجوز الذي قبض عليه جنود أيلول في عمان، وطلبوا منه أن يرفع يديه فرفعها.. وطلبوا منه أن يصلي للسيد، فصلى.. طلبوا منه أن يهتف له، فهتف ضربوه بكعب البندقية.. ثم أمروه أن يركض، فركض.. وصرخوا عليه بأن يقف، فوقف.. عد زحفا، فزحف، وحينما وصلهم سأله أحدهم:

– كيف تذهب قبل أن ترينا هويتك.؟

لقد أمرتموني

– ما اسمك.؟

أجابهم.

– من أي بلد أنت.؟

قال لهم.

– إذن فلسطيني.. فلسطيني.. وتهرب!!؟

انتم أمرتموني.

– أنت ميليشيا..

قال لهم الرجل العجوز ليدافع عن عروبته.. يدافع عن فلســـطينيته أنا فلان يا شـــباب.. متزوج من ســـعدية بنت فلان.. وســـعدية.. قال لهم- والله العظيم إنها (كركية) أبوها تعرفونه.. شيخ قبيلة هناك.. والله أنا زوج سعدية، وسعدية أبوها من (الكرك).

يا شباب.

لكنهم لا يصدقونه.. الفلسطيني لا يصدقونه أبدا.

وما دام "أبو عيســـى" فلســـطيني فيجب أن يكون فدائيا.. وما دام هو رجل عجوز فسيكون ميليشيا، وإذا كان رجل عجوز ميليشيا فانه سيكون رامي "دوشكا". وقال جندي بندقيته البلجيكية أطول منه وذقنه لم تمر عليها الموسى أبدا:

- رأيتك بعيني هاتين ترمي دوشكا يا ميليشيا..

- اركض..

وركض العجوز.. قف.. فوقف.. ازحف.. اركع.. صلي.. تقدم زاحفا على ظهرك.. ماهر في الزحف كالفدائيين.. فدائي هذا الرجل.

- سنفعل بك كذا وكذا يا ابن الـــــ ... قال جندي وأوسعه شتما بألفاظ نابية ولكن جنديا آخر قال لهم شفقة بحاله.. اتركوه إنه عجوز كوالدكم..

فاغتاظ الجندي وشـــك في صـــاحبه.. كيف لا يشـــك وصـــاحبه (ســـلطي) متزوج فلسطينية، فأحس ببذور الشك التي تداعب هذا الجندي وقد تكلفه بذور الشك هذه حياته. فقتل رجل لا يســـاوي أكثر من أربعة قروش في عمان.. ثمن طلقة ليس إلا.. فليدافع عن نفسه وعن أردنية زوجته الفلسطينية.

- اركض أيها العجوز.

وأدار أبو عيســـى ظهره وجرى بقدميه الكليلتين يجر بهما أحزان شـــعب على مدى عشرين عاما.. وانطلقت رصاصات من بندقية الجندي السلطي تخترق ظهر أبى عيســـى تمزق حشـــرجاته وتمزق صـــمت الحارة.. فتنزف دماؤه الفلســـطينية لتمتزج بأرضه العربية.

وعاد سؤال صاحبي.. ولكن هل تصبح قاتلا بمجرد أن يدينوك..؟

قلت له.. نعم، العجوز أبو عيســى أصــبح مدانا حينما أرادوا له أن يكون كذلك، لكنها قضــية ذات وجوه.. للجنود ولأبي عيســى ولي ولك ثم رويت له حكاية أبى عيسى.

– وهل سمعت بقصة القميص الأحمر..؟

لم أجبه.. رغم أنى ســمعتها.. واســتطرد دون أن ينتظر أجابني بعدما اعتقلوا، عشرات الشبان من ذوي القمصان الحمر.. كانوا كلهم مدانين باستثناء من لم يكن مولودا في الضفة الأخرى من النهر.. هم يريدون قميصا أحمر.. لكن كل القمصان الحمر مدانة.

قلت له إن القضية ذات وجهين وحينما تصبح ذات وجه واحد سوف تجد جوابا لكل أسئلتك.

وجلســتنا طالت وبعد أن تناولنا عشــاءنا من الفلافل والبندوره والبصــل الأخضــر جاءتنا زوجته بالشــاي.. ســلمت علينا وخرجت.. كان الشــاي يحضــره لنا في كل زيارة شقيقه الأصغر فسألته عنه.

قال وهو يضحك ضحكة لها أكثر من معنى:

كان يرتدي قميصا أحمر.. تذكر هذا، كان يرتدي قميصا أحمر.

فلملمت نفسي ونظرت إلى قميصي وغبت في أزقة مخيم الوحدات الضيقة وعتمتها وفهمت معنى نظراته إلى قميصي.

حزيران – يونيو 1971

عُراةٌ على ضِفة النهر

ترددت في حلقي كلمات خالية من المعنى، وأخذت في تفكير دائري ابتدأ ثم أعود إلى حيث ابتدأت وسرت في جسدي قشعريرة، نسيت إنني عار على ضفة النهر.

– من أنا.؟

كان شعري مختلطا بالتراب ثم وضعت كفي على وجهي، وأخذت أتحسس الوجه، الجبين، الحاجبين، العينين، الشفتين.

– من أنا.؟ أنا ثلاثة. ثلاثة.؟ لا بل اثنان. اثنان.؟ لا بل واحد.. لا بل صفر.

– صفر؟؟ نعم صفر.؟ أنا لا أريدكم أن تعرفوا الحقيقة، اضربوا رؤوسكم بالقنابل إذا لم يعجبكم.؟ عمري ثلاثون، عشتها على الآمال.. وجسدي ممزوج بعصير البرتقال والليمون وزيت الزيتون. ثم امتزج "بزيت الكاكوز"(1) ثم بزيت الأرض.. الليمون والبرتقال كان أبى شغوفا بهما. أبى أنى احبك يا أبى..

الليمون والبرتقال احترقت فيها الأغصان، وذوت بقايا جذور متأصلة، ازرع خيرا ينبت خيرا يقول أبي.. البرتقال لا يزهر أنا أجيبه، السبحة في يدك يا أبتي.. الله ينصرنا.. أدعيتك إلى الله وماذا تجدي.؟ أخرست عيون النطق في هذا الصيف.. ها أنا اقف وحيدا هنا.. من يراني؟.. انتم أيها الناس أنا "شوقي" لم لا ترونني.؟ خلفي مرآة وأمامي أخري.. هنا تنعكس صورتي أحصوها واحد.. اثنان. ثلاثة.. مليون إلى ما لا نهاية.

ألم ترونها بعد؟ غشاوة سحب الصيف تعمي العيون، والإنسان لا يرى نفسه في أحيان كثيرة، اغسلوا أعينكم من قاع البحر الميت.. لم تشاهدوني بعد.؟!!

– ماذا يشاهدون منظرك شائه.

– بالطبع إن العري شيء قبيح.

– لكن آدم خلق عريانا.؟

لم يكن مفردا.. أتمتم، الإفراد كالسجن. والعري.؟ أتساءل.:
كالموت.. أجيب:
– الموت أجمل شيء حين يكون حقيقيا.
لم يقتلوني.. لم يفعلوا شـــيئا ســـوى أن ضـــربوني ثم عرّوني.. حين انطلقت الرصـــاصـــات كان زميلي بجانبي، فظلوا يقهقهون وهم يراقبوني.. مات.!! ماذا أفعل.؟ الأفضـــل أن أوارى جســـده التراب.. اقرأ عليها القرآن أولاً.. الفاتحة على روحك.. ومسحت كفي بوجهي.. ماذا أصنع بجسدك؟ وأهلك ماذا سيقولون؟. لم لم يجهزوا علينا معا.؟ هكذا كان اتفاقنا ، حتى حينما غادرنا بلدتنا كنا قد اســـتخرجنا جواز الســـفر في يوم واحد.,. وســـافرنا في يوم واحد.. وعدنا في يوم واحد لكننا لم نمت في يوم واحد.. قدر الله.. الله.!!؟
هو الصـيف الأسـود تمرد على سـنن الحق الطبيعية.. الطريق مسـدود الدخان يملأ الأنوف والرؤوس محنية من ضربة الشمس.
– يا شوقي سنعود لنرى أهلنا..
– الطريق يا صديقي صعب واجتياز النهر قاس..
لننتظر ريثما تطير غشاوة الدخان.
– مهما يكن الثمن.
ســرنا.. غربتنا لا شــيء هكذا تعلمنا.. أتشــعرون بالغربة كل البلاد بلادكم.. نحن اخوة لا.. أنتم كاذبون.
البصـاق في أوجهنا.. يقول نحن بعنا أرضـنا.. بعنا أرضـنا من قال.؟! يقولون هذا عنكم.. إذن خذوا ذهبكم.. نحن أجانب شـــكرا لكم.. املئوا أفواهكم بأقنية الذهب.. اشربوا منها.. نحن أجانب.. بعنا أرضنا شكرا لكم.
أرضكم ممسوخة.. تركناهم ومشينا.
صديقي وأنا قررنا معا ترك الغربة وأن نعود.
– لكن الموت يترصدكم.

– قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

– الرصاص حارق.

– والغربة حارقة.

– الموت قاس.

– الذهب ليس أغلى من الوطن.

وحملنا معنا بعض الأشياء.

(هذه هديتك يا أخي جهاد.. أين دبابتي يا شـــوقي كنت أريد دبابة. هذه لك يا أمي.. أريد سلامتك يا بني. وأنت يا أبي هذه هديتك.. شكرا يا بني أأحضرت مصلى..)

هدايا عديدة احضر صديقي لأمه.. ليلة واحدة قضيناها بعد وصولنا المدينة.. رتبنا أمورنا كي نصل أهلنا، ولم يكن باستطاعة أحد أن يمر دون مغامرة. ومشينا. كان حملنا ثقيلا.. لن تمروا بحملكم أبدا.. تخلصوا منه.. ومشينا كان حملنا ثقيلا اهربا بجلدكما إذا اســتطعتما.. ورمينا حملنا ومشــينا.. تخطينا حدود النهر، كانت عيوننا إصــرارا، وظل صــديقي يتمتم : ســأرى أمي يا لها من لحظات ســعيدة ....لكن الموت هنا سهل.. ألم تسمعوا عن الصيف.!؟ هنا البطيخ ينضج.. بطيخ "جنين" احمر مثل الجمرة، اكســروا البطيخ.. كلوه.. هكذا قالوا.. كســروه فما ذاقوا حلاوته. وجدوه اكثر حمرة من أي بطيخ.. ولكن طعمه علقمي.. بطيخ جنين غريب في صيف غريب.. حتى الموت صار هنا موتا صيفيا..

* * *

قال صديقي آه لو أذوق بطيخ جنين وحينما سرنا في حقول "الغور" كنا نشم على بعد رائحة البطيخ المكسور.. وكان الغناء ينطلق عفويا من شفتي.. صوتك سماوي يا فيروز.. أيامنا تمر، غاب نهار آخر، غربتنا زادت نهارا.. واقتربت عودتنا نهارا.. متى أراك يا أبي.؟

وظللت أترنم بمقاطع معينة وأعود لأذوق حلاوتها مرة أخرى، وصـــوتي أجش لكنه مخنوق كان صاحبي بجانبي.. هل استيقظ إله القبور..؟ وحينما تثاءب الإله كانت بضع رصاصات قد اخترقت جسد صاحبي..

أوصيتني بأمك.. أمانة ثقيلة..

ثم مات..

أقولها بسهولة إنه مات.. الموت طعمه كطعم بطيخ جنين هذا الصيف.

* * *

سأواصل المسير.. تنبح الكلاب.. فأخذت اركض.

يا شوقي لن تفلت، الكلاب المسعورة تشم رائحة النسور.. سر ولا تخشى شيئاً لن تنل اكثر من رصاصات..

وماذا لو قبضوا عليك.؟ وان، لن يقتلوك، لم أجرم كي يقتلوني! الحياة عندهم أقسى من الموت! وإن.

الكلاب تنبح والرصاص يدور دونما هدف..

(اللهم احمني.. الله احمني إن كنت موجودا.. أتكفر يا شـــوقي.. لم تفعلها مرة واحدة لا تكفر.. لم أذق جذر كرمه.. لا تكفر.. لم أنم مع امرأة.. لا تكفر..

يا رب ارحمني يا رب.. أبي عمره ستون وسبحة يسر قديمة دائما بيده، يردد إلى ربه أدعية كثيرة..

أيتها السبحة لا تتكلمي عهدك مضى..

– ماذا فعلت بسبحتك.. لا تكذب يا بني.. لا تسرق.. لا تزن يا بني.. لا تسكر.. لا، ثم لا، درس علمتني إياه.. لكنك لم تقل لي لا تكن شـــوقي.. لم لم تقل كن ذرة ســماد.؟ جميعكم أردتم أن تكونوا نباتا.. أما هم فأحرقونا بصـيفهم لأنهم كانوا ترابا وسمادا ونباتا..

لم لم يكون الصيف لنا..؟ وكنا عظاما..

– كالطبول.

* * *

ما زلت أركض وهم يعرفون أني ســـأقع في أيديهم.. تركت صـــديقي عاريا في الخلاء.

كانت الكلاب تعوي "والضحكات ترن في أذني تمزق كياني.. اضربوني أنا أيضا.. لا.. تمهلوا قليلا" ثم عدت للجثة.

كانوا يراقبونني.. ولســـت أدري أي قوة حلت بي.. وأنا أحفر ما يواري جســـد صديقي..**(للأجساد حرمتها.. يرحمك الله.. لكن أيها الخالق لماذا نموت.؟!)**

ظلت الكلاب تنبح، وهي تقترب مني..

أجهدت وأنا ما زلت أحفر..

وكل هنيهة ينطلقون مقهقهين.. لم تقهقهون.؟ وبين لحظة وأخري يطلقون النار لكنني ظللت مربوطا بالجثة.

وجالت في ذهني لثانية فكرة.. ســـأغافلهم وأنام في القبر.. يا للحقارة. الموتى لهم حرمتهم، والأحياء أليس لهم حرمة.؟!

ثم نظرت إلى صاحبي كانت عيناه ما زالتا مفتوحتين ذكرت الشيخ محمد.. للموتى حرمتهم.

وأسبلت جفونه.

وبدأوا في الاقتراب.. كان فكري قد شل.. وأحسست باندحار الحركة في السكون. إنهم يقتربون ولا يتكلمون، رشاشاتهم صامته وكلابهم سلاسلها بأيديهم، وأنا أنظر إليهم أئن من آلام الصمت.. انطقوا رشاشاتكم.

(قلت لك يا شـــوقي إنهم لن يقتلوك.. قلت وإن .. قلت لك الحياة عندهم كالموت. قلت وإن .. لتذق يا شوقي.. ذق.. ذق.)

أسبلت عيني، ثم نظرت إلى صاحبي، كان مسجى وعلى وجهه ترتسم سيماء رائحة أبدية عميقة.. ثم سمعت من يقول ارفع يديك.؟ أرفع يدي لماذا.؟ افعلوا ما شئتم.. أعانق ترابي.. وصديقي مات.!

ارفع يديك أيها الكلب.. ضربوني ببنادقهم ورشاشاتهم.. البنادق ضرباتها لذيذة.. رفسوني بأقدامهم.. داسوا علي.. أقدامهم وطأت قلبي داست هامتي..

(يا الله يا الله احمني.. احمني يا رب.. ألن تحمني من هؤلاء الكلاب. كنت أصلي لك. احمني سأصلي لك في المسجد الأقصى الذي باركنا حوله.. بركاتك تدنس يا رب احمني..)

ومد أحدهم يده، ولطمني على فكي.:. ترنحت. ثم وقعت.. فرفعني آخر وبصق.. جمعت بقايا ريقي وبصقت في وجوههم. لم يخرج سوى صوت جريح.. ضربوني وهم يقهقهون أما كلابهم فكانت مغتاظة منهم لم لا يعطونها حقا..؟

فتشوه! أمر الشاويش.. مائة دينار وبعض الأوراق.. صادروها. الشاويش يأمر! اقتسموها بسرعة.. أعجبهم قميصي نزعوه.. حين وصل أيديهم كان خلقا.. ثم أرادوا السروال **(يا للمهزلة.. السروال لا.. هنا الموت.. افقدوا أعصابكم إن شئتم.)**

وطفح الدم شعرت بقشعريرة تهز كياني، النزيف يرطب جسدي.. وأشعل أحدهم سيجارته. ثم أخذ يحرق شعر صدري متلذذا.

صح تأوه أيها الحقير.

يا أبت أني أحبك.. سرقوا نقودك كيف ستعيش أين آخي يا أماه.؟ أين الدبابة.؟ سيحضر يا بني.. أنا يا أبتي أموت هنا آه لو يطلقون النار.

ثم ارتميت لم أقو على الحراك وتمددوا من حولي علّهم أرادوا الاستراحة من لعبتهم المسليّة.

(أيها الكلاب اضربوا أيضا.. اضربوا.. لم لا أحمل رشاشا.. تحسدوننا على بلادنا.. تدر لبنا وعسلا..نبني الفيلات.. نقتني العربات الحديثة.. ولا نسأل.. لم لا تكون هذه دبابات.؟

إذن اضربوا.. ماذا فعلنا يا إلهنا.؟ هذه أرضك، مسجدك.. وللكعبة رب يحميها.. ألن تحمها. نصوم ولا نسكر نعبدك، نصلي.. ولا نزني.. نحن عفونة؟ نصوم نصلي نعبد الله.. لكن نفوسنا ليست بيضاء..)

وابتدأ الجنود من جديد في لعبتهم المسلية، واستعانوا بكلابهم.. إنها ارق منهم، كنت لا أطيق الكلام ولا أقدر على التحرك ثم ارتميت كالمصلوب لا أريم، ولا انطق: ابتدأوا يتشاورون.. ماذا نفعل به.؟ نقتله؟ أم نسلمه للدورية التالية؟.

قال أحدهم: لنتركه حتى يحضر القائد.

كانت عربة جيب قادمة فيها ضابط وبعض الجنود. وتكلموا عني.. هكذا فهمت.. ثم أشاروا ألي فقال الضابط لا.. ثم أمرهم بشيء ما وأقبلوا نحوي.. كان حلقي جافا وجرعة ماء تساوي حياتي..

وابتدأوا في نزع ما بقي من ثيابي.. كنت أحاول أن أرفع يدي لكنها ترتد ثانية على صدري بغير إرادة.. وأصبحت عريانا كما ولدتني أمي.

– ما أسمك.؟

– لم أحر جوابا.

– وركلني الضابط بقدمه.. تكلم يا ابن الـ...

ولم أتكلم..

اسقوه ماء.. سقوني حتى رويت.. نظرت إلى الضابط وبصقت..

– تكلم وإلا سأقتلك..

يا ليتكم فعلتم.. قتلتموني ألف مرة.. لن أتكلم..

ولذت في بحيرة صمت..

– عد من حيث أتيت فنحن كرماء معك.. لن نقتلك وركلني بقدمه مرة أخرى.. وجروني حتى أوصلوني النهر.

صاح الضابط اذهب إلى شعبك يا.. وقل له أننا عريناك..

ثم رموني على الضـفة الأخرى.. وكنت لا زلت أسـمع قهقهاتهم.. ولا زلت اسـمع صـوت أخي يقول أين الدبابة.؟ فابتسـمت بألم.. وأبي عاد يسـألني عن المصـلى.. تذكرت صاحبي الذي مات..

وارتميت أتنفس بعمق.. وتحسـسـت جسـدي.. فوجدت نفسـي عاريا على ضـفة النهر..

– اذهب إلى شعبك وقل له أننا عريناك.

شعبي يعرف هذا.. هم عراة أيضا.

تشرين الثاني – نوفمبر 1967

اليوم الحادي والعشرون

أغنية خضراء تغنّى.. العصافيرّ تغرد ولكنها لا تعي ما تقول... إنسان على جنبه يحمل سكينا. التيه أنا أضيع في غماره. ما قيمة اليوم.. ؟وذا هو السؤال الذي يتردد على الأفواه.

التواريخ عديمة القيمة لأولئك الموهوبين للموت.. القيمة الحقيقية ليست التواريخ والأيام. فقط كيف يزرعون الموت وكيف لا يموتون.؟ هنا تكمن الأهمية.

وسأل نفسه: اليوم الحادي والعشرون.. ما يمكن أن يكون وراءه.؟ هو يوم آخر بلا ضياء أو زهور.. الأغاني الخضراء ليست لنا نحن الذين نموت وعيوننا معلقة بالفل والياسمين وحتى أغاريد الطيور لا أستطيع إدراك معنى أنغامها.

على جنبه مدية حادة.. يمكن أن تغرز في أي لحم. وستنزف دما من من أي لحم.. وقد تقطع حبلا.. أو غصن شجرة.. ولكنها تبقى سلاحا يسمونه أبيض.. يخاف منه ذلك العدو الذي يختال على الأرض وعلى الكتف كان الكلاشنكوف يتدلى.. وفوق الجبين سؤال:

ما قيمة اليوم الحادي والعشرين.؟!

بالأمس كان في عملية أربعة رفاق.. رفاق في كل شيء.. الجوع.. الحرمان.. التشرد.. وهذه أقسى أنواع الرفقة.. إنها تجعل للرفقة لونا مصيريا من طراز خاص، وفوق هذا كله كانوا رفقاء عقيدة ومبدأ وسلاح. سترهم المموهة.. ورشاشتهم وبنادقهم ومتفجراتهم. كالأشباح...

يتقدمون على الجنب كانت تتحرك كرات حديدية.. الموت بداخلها..

الهدف اقتربوا منه.. ثلاثمائة متر.. ويبدأون في زرع الألغام , وهو ظهيرهم وحاميهم.. الحماية كالموت هكذا قال.. أن يظل الإنسان يرقب شيئا ما وخاصة

احتمالات الموت.. شـــيء مفزع.. أما أن تزرع الموت لمن يذيقونك العلقم فشـــيء مختلف تماما.. لكنها الأوامر..

العملية تمت بســـرعة وإنجاز ماهر.. ها هي الأرض مفروشـــة بالموت وهم الآن يتحركون بخطى ســريعة.. يتمتمون بأغنيات جذلى معرشــة بالغار.. ضــوء خافت على مضض يتقدم.. الأربعة فجأة يتحركون، أصوات مدافع غير مأمورة من الضفة الشرقية تحاول أن تفرش لهم طريق سلامة.. المدفعية بالمدفعية تقابل .. الكشافات تحيل الليل نهار أيتها الســماء أمطري إن كنت تســتطيعين ظلاما.. الأربعة داســوا على ترابهم بثبات ثم ناموا بين الرمال.. الضـــوء الخافت يتقدم بســـرعة.. وهم يزحفون.

قائد الأربعة يتحرك.. يأمر رشاشاتكم وقنابلكم.. العصافير أيقظها ضوء الكشافات المباغت.. لكن العصافير كانت تغرد.. الضوء أيقظ العصافير من مهاجعها.. من يفهم لغة العصافير؟! هل هي نشوى لكنه لم يجد تفسيرا لذلك.

أصــوات رصــاص ينطلق من فوق رؤوســهم وبالقرب من جنوبهم.. الســماء تمطر نارا. لم لا تمطر طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.

قبضت يده على القنبلة وسحب فتيل الأمان وقذفها.. ثم ارتمى أرضا.. اصطدمت بالضوء الخافت انفجر مقهقها.. يا لها من لحظة.. مات الضوء الخافت..

أصوات الرشاشات تندلع معلنة موعد الرحيل.. إلى أين.. وهذه أرضه..

.. الرصـــاص بالرصـــاص يقابل.. عض على نواجذه.. الحياة لنا.. قذف بنفســـه متواريا خلف صـــخرة.. الصـــخرة موقع يســاوي الألوف في معركة.. اضــربوا أيها الرفاق.. اليوم يومكم.

الأغنية الخضـــراء لم تردد.. انســـحبوا بهدوء.. وعلى كتفه يحمل رفيقا.. الرفيقان الآخران اســـتطاعا أن يزحفا رغم الجراح المثخنة.. وعلى النهر المصـــلوب ألقى نظرة.. أيها النهر بك سأدفن أيامي كي تطهر أن بقي لي أيام.

اجتياز النهر صعب.. وقسوته اكبر إن لم يكن هناك رفاق، ضوء خافت يلمع من بعيد.. صوت المدافع من الضفة الشرقية يعلن نبض الحياة.. ووجود الرفاق على الضفة الشرقية. الضوء الخافت يتقدم ببطء.. صوت انفجار ويهلك الضوء الخافت. ابتسم. هي ألغامنا.. وفي اليوم الحادي والعشرين كان يستمع إلى أنشودة خضراء من أفواه الصبية في معسكر تدريب الأشبال، وابتسم وعاد سؤاله يلح ما قيمة اليوم الحادي والعشـــرين.. ألا أنه كان هذه المرة يعرف الجواب حيث اصـــبح تغريد العصافير أجمل وأناشيد الأطفال أنصع ثم أخذ يغني جزلا... لا يفكر في شيء.

تشرين أول – أكتوبر 1968

الثلج يُنبِتُ خنجرا

أدق في الأرض وتدا.. الريح عاتية.. النائمون يســتيقظون.. يتســرب الماء إلى الأعماق.. الأجساد الطويلة تتململ..

ماذا أصنع لهم.؟ أحبائي فلتناموا.

يفتحون أعينهم نصف فتحة.. يغلقونها وينامون. يخيل إلى أن الأصوات التي فوق الخيمة.. كأنها وقع حوافر.. مهزومة.. كليلة لا بل نشـــطة تغذ الخطى.. فوقها فارس عتيق.

– ناموا يا أحبائي..!

ونشـرت بطانيتها السـوداء فوقهم.. تمددت تبحلق في عتمة الكيان المحصـور بين (الشادر) والأوتاد والأعمدة..

– ها .. هل نمت يا أبا محمود.؟

أصــمت.. لا أتكلم.. من أعماق صــدري المثقل بســنوات حروب طويلة.. والمثقل بسجائر (الهيشى) التي أتقن لفها.. تخرج قحة، من صدري تخرج قحة..

– ها أنك مستيقظ.!!

* .....

– أبناء ابنك يموتون من البرد.؟!

*.....

ألوذ بالصمت.. القنابل تتساقط من كل ناحية وزئير صوت المدافع.. بم..بم..بم.. الأطفال يتكومون بجانبهم أبوهم.. الطفل المدلل في حضن جده يغفو.. أداعبه أقبله لا تخف.. بعد ســاعات كانت الطلقات والمدافع بالنســبة للأطفال شــيئاً عادياً.. الأطفال يريدون أن يأكلوا.. أحاول أن اخرج.. ابني يمنعني.. ويخرج ليحضـــر لأبنائه طعاما..

– الرصاص الطائش هنا وهناك.. لا نريد أكلا.. عد يا بني..

أقول لها المكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين.

أم الأطفال كانت تزور والدها العليل..

فجأة صرخ المدلل الصغير – أمي .. أمي.. أين أمي.؟ أحسست لحظتها بطعنات قاتلة تمزق صدري..

– قلت: ابعد عني ..

زوجتي نظرت إلي وتمتمت اسم الله عليك وبسملت وحوقلت..

جدي ما بك.؟

الصمت ارتمى بين أحضانه.. أحسست لحظتها أن ملثما يحمل خنجرا مدببا قد أمسك بعنقي وأخذ يذبحني..

الطفل يبكي.. وأنا أشاهد دمي المسفوح على يد الملثم المجهول..

– غاب ابنك يا أبا محمود.!!

كل غائب وحجته معه.. وماذا لو تأخر.؟ لا بد أنّه يتحين فرصة للعودة.. الماء يعسعس بين الأقدام الطرية.. شهر شباط يزور المدينة.. يدي تمسح قطرات ماء انحدرت من جبين السطح الواقي؟!

فتحت الشق.. أبص على علب الصفيح الكبيرة المتراصة أمامي.. الريح قوية وعيون السماء تدلق المياه.. صنابير السماء مفتوحة على آخرها..

* لا فائدة من اعتدال الجو..

– ألم تنم بعد يا أبا محمود؟!

* نمت بما فيه الكفاية.. نامي أنت.. أتبكين.. لماذا.؟

تبكي وتبكي.. وأنا أصيح في وجهها كفي.. لئلا يستيقظ الأطفال بلا أم ولا أب وتبكي وتبكي..

– السماء تبكي معنا يا أبا محمود..

أهز رأسي..

– أبا محمود السماء تبكي معنا أليس كذلك.؟

* اسكتي السماء لا تبكي مع أحد، ولا على أحد.. هي تراقب..

– السماء تبكي على محمود وزوجته يا أبا محمود..

* قلت لك اسكتي.. ليس لنا إلا الصبر..

– السماء تبكي من أجل الأطفال اليتامى..

* الأطفال اليتامى لهم الله.

حينما حملت محموداً على كتفي وسرت لأواري جسده التراب، لم يكن يخطر في بالي لحظة أن هاتين الكتفين سوف تحملان جثة محموداً.. مع غيره مات.. بكينا وبسرعة خلفت دموعي .. مرت الأيام.. والمدافع تزأر والناس قد اعتادوا هذا النوع الغريب من قرع طبول الحزن.. وأصبحت علامات الحزن تغمر كل الوجوه.

من مات.؟ سؤال لا قيمة له، حينما يصبح السؤال الأهم من عاش.؟

– مات أبو فلان، وفلانة يا أبا محمود.. سجنوا ألوفا وألوفا..

– لا تخافي لن يأخذوا الشيوخ.

وأخذوا مؤذن الجامع، واخذوا عجوزاً لا يسمع، أوسعوه ضربا لأنه لم يرد عليهم.. (لمّوا) حتى سعد (الأهبل) من الحارة..

ألم اقل لك يا أم محمود انهم لن يأخذوا الشيوخ، ها انهم قد تركوني.. لكن الأرض ما زالت تغلي.. أيام تصحو.. وأيام تفور.. البرد يشتد والأطفال يحتاجون إلى غذاء وكساء.

يأكل الأطفال.. لا يعرفون من أين تأتي اللقمة وكيف.؟! لكنهم يأكلون.. الصغير سأل أباه حينما خرج : هل ستحضر لي كلاشنكوفا.؟بتسم وقبّله، لم يكن يدرك أنها قبلة الوداع.

الأطفال يتساءلون هل أبوهم قرر ألا يعود.؟! وهل يحمل كلاشنكوفا.؟!

يتشاجرون فيما بينهم.. يوزعون أسلحة على أنفسهم.. كل منهم له لعبته واسمه الحركي.. أبو علي.. وأبو نضال.. والوحش.

– الجو يا أبا محمود به تباشير ثلجية.

أغمغم.. ثلج وخيمة.. حينما خرجنا في النزوح الأول أثلجت الدنيا.. وقلنا يومها– تذكرين ذلك– انه غضب، وحينما نزحنا عام 1967 في المرة الثانية أثلجت أيضا. خيامنا انزلقت من مواقعها.. قلنا هو غضب.. واليوم.. ماذا نقول.. أغضب أيضا.؟

* اسمعي لو استمر البرد قليلا سيكون وسادة ملائمة لاضطجاع الثلج..

– ألن تنم يا أبا محمود.؟

*هذا الصـوت اللعين الذي يجبرني على الاسـتماع إليه لا يتركني أخلد للنوم.. قد تقولين إني مجنون..

– بعد الشر عنك.

* حقا أقول لك قد تظنينني مجنونا..

– قل لا تخشى شيئا..

* هل صحيح أن محمود وزوجته قد ماتا.؟

– .....

* لم لا تردين.. أني لا أصدق.؟

– .....

* تلتزمين الصمت.. قلت لك قد تظنينني مجنونا.

وانخرطت في البكاء.

أستمع إلى تنفس الأطفال وزفراتهم، وكأنها تنبع من أعماقي.

لا تبكي لئلا توقظي الأطفال.

تناولت جرعة ماء شربتها من إناء فخاري في ركن الخيمة.

حاولت أن أسـتسـلم للنعاس.. طاردتني صـور شـتى ماذا لو مت وخلفي هؤلاء الصـبية..؟! طردت الفكرة من ذهني لكنها عادت إلي بإلحاح.. لسـت ادري لعل حوادث السماء لها تأثيرها على.. رصاصات دوت..

ماذا حصل.؟

توت.. توت.. أبواق السيارات تنفخ.. وفحيح الناس يتعالى وهم يتراكضون.. طلقات رصـــاص تدوي.. رصـــاص هناك.. المحلات تقفل أبوابها، والكل يحاول أن يجد مكانا يختبئ فيه من رصـــاص غبي يتقاذف من كل جانب. ســـقط فتى بجانبي.. وحملوا امرأة حملوها إلى المستشفى..

– تأخرت وأقلقتنا يا أبا محمود.

* احمدي الله على السلامة يا أم محمود..

كان من الممكن أن أموت فطيساً في سوق المدينة.. وها هي فكرة الموت تعود إلي بإلحاح.

منطقتنا مهددة بهجوم.. هكذا سـرت الإشـاعة منذ أسـبوع وقال البعض إن قصـفا مدفعيا سوف يصيبها..

أم محمود طلبت أن نلجأ إلى منطقة أخرى من أجل الأولاد.. ومن أجلهم قلت لها ألن نتحرك .. لن نترك موقعا نحن فيه أبداً..

العائلات التي غادرت المنطقة عادت مرة أخرى... كانت كذبا تلك الإشـاعة إلا أن جو الاضـطراب والقلق يسـودان المدينة وحواليها.. بين السـلطة والمقاومة الثقة غير متوفرة.. والوجدان باتا نقيضـين.. أصـبحت القضـية فدائي، أو لا فدائي، وبالنسـبة للفدائي أقول لأم محمود– ليس من طريق لحريته إلا بتحرير إرادته.

فكرة الموت طاردتني وطاردتها.. حتى غلبني النعاس.. وغلب زوجتي أيضا.. حتى أننا لم نستيقظ لصلاة الفجر.

في الصـــباح أطلّ الأطفال من الشـــق.. هللوا وفرحوا.. الثلج.. الثلج كرات الثلج تتدحرج.. يتسابقون.. كرة ثلجية ضخمة يصنعون منها تمثالا كبيرا.. لرجل مسلح.. الطفل يقول هوذا الفدائي.

الثلج الأبيض يغطي الأرض.. تنـادي على الأطفـال.. ادخلوا من البرد يلهون ويضحكون.. دخلوا ليأكلوا..

صـــوت طلقات نارية تأتي.. النار من فوق الرؤوس وكأنها تحاول إذابة الثلج.. الأطفال ينظرون إلي.. ليس في نظراتهم خوف ولا فزع. يبتهجون لصوت الرصاص ماذا يعني لهم.. لعبة مســلية.. لكنهم تربوا على صــوته، وعلى معانقة الســلاح نشـــأوا.. عند جارنا ذهبنا. تكومنا في ملجأ حفره وأبناؤه كالفســـيخ في برميله الخشبي.. بين الفسيخ أدخن اختقهم، وليس بيدي غير ذلك.

الرصاص صوته يبتعد.. لكن أصوات نساء تصرخ.. وتولول.. تترامى إلى أسماعنا امرأة تنادي يا ويلكم زوجي.. هو أبو العيال ومن لهم بعده؟!

أصوات النساء يولولن. النساء يولولن..

يصـلنا الجنود.. فينادون اخرجوا.. أيها الرجال.. اخرجوا.. وشـتموا أيها الرجال في زي النساء اخرجوا.. وخرجنا.

شـــيبا كنا.. ثم أطفالا.. أخرجوهم أول الأمر ثم تركوا بعضـــهم في عربات نقل عســكرية شــحنونا.. وبمعســكر فســيح الأطراف تركونا.. نفترش الأرض بغطائها الأبيض الناصع.

الأوصال تتجمد.. الدورة الدموية يختل توازنها.. أحرك أصابعي افتح قبضة يدي ثم أقفلها.. أفرك يديّ..؟!

العراء والثلج.. والبرد والجوع.. والشيخوخة.. هي أنا، ومثلي هنا كثيرون.

وصرخت في وجوههم:

* ألا تعرفون الرحمة تتركونا في البرد بين الثلج..

اخرس...

ويفرقع بسوط في يده.

* ارحموا شيخوختنا وأطفالنا..

– ارحموا.. ارحموا..

وتعلو ضـحكات جندي لا يعرف حتى ما اسمه.. وانهال علي ضـربا بالسـوط.. ثم ركلا بالحذاء.

لم أدر ماذا جرى لي بعد أن هجم على ذلك الجندي..
كنت قد عانقت الثلج ورحت في نومة لا أدري طولها.. وكان شـريط بني يلتصـق في جانب فمي ويمتد إلى ذقني.
وتداعت إلى ذهني صـور الأطفال.. ابني وزوجته، أم محمود شـبح الموت يعود ثانية يدوس هامتي..
يا أم محمود بكاء السـماء يبذر في الأرض ثلجا.. والثلج ينبت خنجرا.. فنفضـت عن لحيتي الثلج.. وكانت قدماي قد جمدتا فلم أقو على تحريكهما..

آذار – مارس 1971

دائرة الضوء وحمّام الميلاد الأول

1- دائرة الضوء.

مرت فراشات هائمة، وتراقصت حول ذبالة السراج. ودّت لو تعانق خطوط النور المنسابة ببخل شديد من تلك الذبالة.

لم تكد تقترب من منطقة الضوء الباهت، حتى تحركت في مكامني مشاعر غريبة.. لو أستطيع أن امسك الفراشات تلك.. وأعتصرهن فأمزج عصيرهن مع (الجاز) ليمنحني نورا هائما مثلهن.

مددت يدي وأخفضت قليلا من ذبالة السراج، فتراجعت الفراشات مذعورات من ذلك المتجني على النور السحري الذي اجتذبهن.. ضقت ذرعا بدوران الفراشات حول الذبالة.

اعتبرت ذلك تحديا سافرا غير ملائم.. حيث افسد وجودهن بحيرة عميقة هادئة بموجات صاخبة من الدوران غير الهادف.

ملت قليلا نحو السراج ونفخت.. ثم انطفأ السراج..

قلت لنفسي ماذا ستصنع الفراشات الآن.؟ ظلام في ظلام.. وانقلبت البحيرة العميقة الهادئة إلى بحيرة سوداء آسنة فيها طحالب مكونة من الفراشات وصراخها الغاضب كأنه مظاهرة احتجاج..

كان لا بد لي أن أعيش لو للحظات، في بحيرة الصمت، لكنني انسللت بعيدا بعيداً نحو آمال معلقة خلف شريط اخضر من أمان عذاب عاشها شعب بأكمله.

وشعرت أن لا بد لي من أن أصنع شيئا مهما كان تافها..

تمتمت.. جيفارا يا أسطورة النضال.؟ لكن ما شأني وجيفارا.؟

لست أدري كيف تجمعت أصابع يدي وتقلصت فجأة.. ثم تشكلت لتكون قبضة قاسية وأحسست أن بإمكاني أن أصنع من شعبي نارا لاهبة.. لا تذر حتى الأخضر.. والإنسان حين يأمل يحاول أن يستجمع طاقاته.. بدون جدوى.. حينما

أدركت أي ظلمة تسبح فيها غرفتي ارتددت إلى واقعي.. بعيدا عن جيفارا.. وشعبي.. لكني لست ادري أي واقع ذاك.. أنا في غرفتي الحقيرة.. غرفة لاجيء أعيش كغيري من الشباب على أمل واحد.

لم تكن غرفتي فيها شيء سوى الظلام.. أما الأثاث فمعذرة لأنني لا أستطيع أن أحصيه وأعيش مع قليل من الفئران والصراصير.. والفراشات تأتي لزيارتي بعض الأوقات.. لعلها تشعر بوحدتي فتأتي لمؤانستي.. لكني أحاول أن أفهم سر دوران الفراشات.. حول الضوء.

في الحقيقة إن الضوء ساحر جميل ورائع.. أنا أهوى الضوء لكني لا أرغب في أن أدور حوله إني افضل أن أموت في الظلام على أن أدور حول الضوء لو دورة واحدة.. وبي رغبة شديدة في أن أموت في اللحظة التي أخترق فيها مجال الضوء.. بل هي أمنية.

غرفتي مظلمة تحوطها رعاية قدسية لا تعرف الرحمة أو القسوة.. رعاية بلا عواطف، ولعل ما يفسد هذه الحقيقة وصية أبي قبل موته برصاص الصهاينة.. أنت يا بني ابن عالمك الذي أكل التفاح في الجنة اصبر يا بني على لقم الشوك.. إلى أن تحمل فأسا لتقتلعه. بكيت كثيرا يا والدي.. علني أغسل عاري وضعفي أو عار هزيمتي.. حاولت كثيرا أن أقبض على الريح أو أن أصارع طواحين الهواء.. ووجدت انه لا بد قبل كل شيء أن أخترق دائرة الضوء.. غرفتي مظلمة لا شيء يضيئها.. كاذب من يقول إنها من غير جيفارا أو الشعب أو الفأس يمكن أن تضاء.

بحيرة الصمت الساكنة تشهد على ظلمة غرفتي.. وعلى ذلك الشوك الذهبي الذي آكله كل يوم واجتره كل مساء.. اسألوها قد تقول لكم عن أشياء كثيرة.. قد تبوح لكم بأسراري.. عن حبي عن آمالي.. عن بكائي.. عن أحلامي.. ستقول لكم أي غرفة مظلمة هي.؟ كإظلام العالم بلا قمر.

وأنتن أيتها الفراشـــات قد أكون مخطئاً في حقكن، إلا أنني أريد أن نخترق حلقات الضوء سويا في سيرنا الطويل.

واستجمعت قبضتي مرة أخرى، ولم أدر لماذا ضربت السراج وحطمته.؟!

وعادت الفراشات إلى الأزيز، وتمددت على فراشي بخيال شارد غير واع أو مركز ، وداعبني حلم أنني جيفارا أحمل فأساً مع قوم كثيرين استطعت بهم أن أحوز القمر وأغوص في دائرة ضوء ممتدة الكيان إلى ما لا نهاية.

2- حمّام الميلاد الأول.

حدثتكم عن حجرتي.. فيها سراج وفراشات.. نسيت أن أقول لكم إن حجرتي مقفلة إنني ما زلت أتحدث منها.

- من أنت؟! سؤال بصوت عميق..

* أنا..!!

- نعم. من أنت؟..

سؤال غريب.. كيف يجرؤ أحد على سؤالي من أنا.؟ وفوق السحاب تجد هامتي منتصبة.. إلا أن السؤال كان قاسيا.. لم أستطع حينها أن أتمالك نفسي، ودرت حول ذاتي كما أظن أكثر من دورة كاملة.. وترنحت من هول صـــدمة الســـؤال.. فارتطم رأسي بشيء صلب.. جدار.. ثم جدار.. وجدار آخر.. ثم جدار رابع.

كم من الصدمات التي أصابت رأسي.. واثبت كفي على رأسي كي أقفل الجراح.. كانت كثيرة.. وددت لو أمسك المنديل كي أجفف ذلك السائل الساخن المنساب من رأسي رائحته كرائحة زهر الليمون.. ولونه لم يكن أرجوانيا قانيا.. بل كان برتقالياً.

حاولت أن أقاوم شدة اللطمات التي واجهتني.. إلا أن السؤال واجهني مرة أخرى: من أنت.؟

لم أكد أتم كلمة أنا، حتى هويت مرة أخرى.. ظلي يعانق الأرض.. قدماي غاصتا في أرض الغرفة.. كلما حاولت أن استجمع قواي.. أو أسحب نفسي تجدني غائصا في لجة عميقة بلا قرار.. قدماي غاصتا في طين اسود يداي التصقتا بجسدي..

أصبحت كالجنين.. ظلت رأسي هي الوحيدة من بقايا جسدي تحاول المقاومة، ثم رفعت من مستوى نظري قليلا، علني أبصر أي شيء.. أول الأمر ظلت عيناي لا تبصران سوى جدران غرفتي العتيقة.. ماذا لو اجتازت عيناي بأبصارهما حدود الإمكان.. لكن لي عينين بشريتين لن تتخطيا الجدران، آه لو أغسل عيني من مياه البحر الميت.. لو أغوص في قاع البحر الميت حيث لا يرُجّس مياهه كائن حي.. علني اطهر نفسي.. أو أحمل زجاجة أستطيع فيها أن اغسل جدران غرفتي..!

وضحكت من نفسي.. أنا لا أكاد أعوم.. فكيف أغوص.. لكن صوتا ينادي..

– يا ... تقدم..

ابتسمت لم أعد أشعر بالغربة هناك من يعرفني.. الباب والنوافذ كلها ابتسمت، جدران غرفتي صارت من زجاج.. واكتسبت عيناي أبعاد رؤيا ناصعة.. من نظّف الجدران.؟ هل طغت مياه البحر الميت.؟ هل علت أمواجه.؟ هل فاض نهر الأردن.؟

أخذت في سحب نفسي من اللجة العميقة في أرض غرفتي.. لكني لم أقو على الاحتمال.

– أرض غير أرضك لا تقوى على حملك.؟

تصبب العرق من جبيني.. بعد لحظات قليلة كان جسدي بارداً.. وشعرت ببرودة رام الله في شهر كانون.. أغرقني العرق.. كان حمّاما مطهّرا.. نزعت ملابسي وأخذت البرودة تتسلل عبر أطراف أصابعي وتعيد إلى حيوية فائقة..

لكن الصوت عاد ثانية يناديني باسمي.

– أنت يا ..

اجتاحني إحساس عميق بالسعادة.. أنا فلان.. يا لسعادة الإنسان حين يشعر بوجوده.. ابتسمت ابتسامة نشوى بالأمل.. كان لي رغبة قويه في الخروج.. لأقبل ذلك الهاتف أو أن أصافحه.. كنت عاريا مع ذلك لم اشعر بأدنى خجل.. ماتت في نفسي كوامن الخجل.

بعد قليل اســتحالت الجدران كلها إلى جدران زجاجية.. انقطع الهاتف بحثت عنه.. أريد أن اسمع صوتك.. مسحت عيني علني أرى من كان يدعوني.

أدركت عريي.. لم أجد شيئا يستر جسدي.. أنا بين جدران أربع زجاجية مقفلة كل من حولي يتفرجون علي.. يسألون من هذا.؟ من هذا.؟

اقتربت من الباب الزجاجي، حاولت فتحه.. لم استطع. حاولت كسره.. لم اقو عليه.

صاح صوت من بعيد:.. من ذا الذي يريد تحطيم الباب.؟

هل أجيبه..؟ بقيت مدة مترددا..

الصوت صرخ.. دونك الباب لكنه يفتح بميعاد.

ارضي يدعونها أرض الميعاد.. ونحن ماذا ندعوها..؟

إنني لا أكاد أضـــــع قدمي على أرض الغرفة حتى تتوهان في لجة بعيدة بحثا عن أرض صلبة تحتملها..

اســتطعت أن ألم أطراف ملابســي.. وارتديتها.. كانت الجدران الأربعة الزجاجية.. لأنني في تحديها السافر لي.. لم اقو على اختراقها..

وكم يشعر بمرارة عظمى إنسان تحرمه من شيء وهو في متناول يده.

أنا في غرفتي الزجاجية أرقب كل شيء.. وأرى كل شيء ولكنها غرفة مقفلة.

أبونا آدم تناول التفاحة من زمن ترك الجنة، حيث لم يطق الحرمان.. أما أنا فماذا اصـــــنع.. خطر في ذهني أن أحطم جدران الغرفة الزجاجية واجتازها إلى ما بعد الحدود.

أشــرقت الشــمس.. ثم زالت بقايا الغشــاوة عن عيني.. اســتطعت أن أميز أشــياء كثيرة.. جيراني كلهم مثلي في غرف زجاجية.

صرخ أحدهم: أنت يا..... هل سألك أحد من أنت.؟

قلت له: نعم..

قال: سألني أنا أيضا.

ران الصـمت.. مشـاعري هدأت.. وغمرني هدوء نسـبي فالإنسـان يسـتريح إذا ما شاركه أي إنسان واقعه..

اســـتغرقت بعد ذلك في تفكير انحصـــر باتجاه واحد.. من أنت.؟ لماذا مثل هذا السؤال.. أنا لا أجهل هويتي.. ولا أجهل ذاتي.. لكنه شيء قاس أن تكون مجهولا..

ثم جاء صوت آخر من بعيد:- أنت يا.. هل سألك أحد من أنت.؟

قلت.. نعم.. وأنت.؟

قال وأنا كذلك.؟

لقد صدمت من المفاجأة لأنه يعرفني كما أعرفك..

ظننت أنني سـأتخلص من مشـاعري الغريبة بسـرعة.. أحسّ بضـيق يعتصـر ذاتي ويحيلها إلى عصارة آلام.. يقتلها.. ثم يحييها.. ثم يقتلها لكني لا أقوى على تطهير آلامي.. فالحصـــار محكم.. والعيون تراقب والغرفة مقفلة. والســـؤال من أنت.؟ لا زالت طعناته مميتة .. من أنا.؟

هل هناك من يجهلني..؟ أرى نفســـي في غرفة مقفلة بين جدران أربعة لا تعرف سـوى الصـمت.. لو تكلمت سـتكون أحرفها سـخرية.. وبسـمتها اسـتهزاء من هذا السجين.. سألت نفسي.. من أنا.؟ فلأفرض وجودي ولأقل لهم من أنا.؟

المستحيل أن أبقى سجينا في غرفة زجاجية مقفلة.. ضحكت جدران الغرفة ثم تعالت ضحكاتها صارت قهقهات.. أقفلت أذني.. الغرفة تتحداني لكن لن أظل في هذا الكيان المحصور مهما كان الثمن.

ما الحل.؟ حطم جدران الغرفة.

- إنها زجاجية..

- وماذا لو أدميت يديك. حطم الجدار. وتقول حينئذ أنا فلان بأعلى صـــوتك.. ستجد مئات ومئات الآلاف مثلك يصنعون .. لن يجرؤ أحد على سؤالك من أنت.؟ كان لا بد أن افعل شيئا مهما كلف الثمن.. من أنا.؟ من أنا.؟ اقـتـربـت مـن الجدار الزجاجي.؟ ثم لمسته ونظرت إلى كفي كانا طريين ثم أعدت مرة أخرى لمس الزجاج..

تراجعت قليلا.. دوّى صوت من بعيد من أنت.؟
لم أشعر إلا بقبضتي تجتمعان ثم تحطمان الجدار الزجاجي.. كان الدم ينزف بغزارة وضياء الشمس تغرق الغرفة.. شعرت بالدم طهرا لأعماقي وكأن هذا الدم المنزوف إنما هو مياه حمام الميلاد الأول.. وابتسمت الشمس وهي تصنع لي دائرة ضوء.. لتعانق حمام الميلاد الأول.

(آب – أغسطس1967)

اللقيا محرمة[3]

اللقيا بعد عام– عام يا مدينتي أو اكثر.. ثم نزرع الأحلام، نقلع الأحلام، تموت في نفوسنا نشوة حمقاء.. ويعود إلى الشوارع المختنقة غيظا بعض البهاء.. مر عام واقترب عام.. كانت (عيوني) لا تعرف لون السماء.. الشمس تحرق لون السماء، وتطفئ نور العيون.. وحبيبتي من نافذة تظل تغني للصباح.. اللقيا بعد عام.

يا حبيبتي زرعنا منذ ميلادنا نغمات الحب في قلب فخاري.. كنت جارتنا.. ذقنا طعم الحصرم المسروق بلذة ١.. عانقنا عرائسنا.. لعبنا.. كنت عريسا وأنت عروسة.. غنينا لبعضنا البعض، قلت أنه كان لي جارة حبيبة، عيونها زرقاء مثل مريم العذراء، وشعرها جدائل مطوية تسكن في مدينة الرياح والهوى مدينة أرادها الإله أن تكون موصدة الأبواب والكوى.

والأيام حينما تمرّ.. لا تكلّ ولا تعرف الملل.. تهمس، أو تغني، أو تتكلم، وفي بعض الأحيان تصرخ. وحينما نصرخ لها بأن قفي..!! تهز منكبيها مبتسمة وتسير.. لا زلت أذكر أيام طفولتنا في مدينتنا المقدسة... الأسوار تحكي تاريخا.. أزقتها التي طرقناها مرارا تتكلم عن خطى أقدامنا.. وفي منحنيات شوارعها ما بين باب العامود وحارة اليهود كنا نلتقي خلف زقاق مهجور.. أهمس في أذن جارتنا.. أحبك.. تضحك.. تظل ذات العيون الزرقاء تضحك.. وتقول بخفر وهمس وأنا احب.. بك ونفترق.

اثنا عشر عاما ليس لها معنى سوى البراءة، لكن كلماتنا تلك ولقاءاتنا في ذلك الزقاق ظلت تكبر.. الإثنا عشر عاما أصبحت ثمانية عشر عاما، وجارتنا ذات

3

(إلى صديقي الشاعر محمد عز الدين المناصرة الذي ذاب حبا في أرض فلسطين.
وغنى لجارته الصبية ذات العيون الزرقاء في قصيدته "كنيسة القيامة".)

العيون الزرقاء، ظلت تكبر.. وكبرت كلمة الحب ولم أعد أســـتطيع أن أقول لها أحبك.

جارتنا الحســـناء تهواني هكذا تكلمت العيون، وأنا أهواها.. اعبدها.. يا جارتنا ســنلتقي.. الجار يراقب، الحجارة تتلصــص، الشــارع يمتد بغباء، لكنه يرى. حتى الشـــمس من عليائها تنظر.. رغم ذلك أهمس، يا جارتنا إني أحبك، كتبت إليها رسالة ملتهبة. قلت لها إني لا يغمض لي جفن.. وحينما أغفو أحلم بك..

كتبت : إني أعبدك يا جارتي.. لكن جارتنا أعادت رســـالتي وطبعت قبله عليها بأحمر الشــفاه، احتفظت بالرســالة وقلت لأنها ما زالت عند عهدها فســأموت من أجلها.

* * *

والمطر في مدينتنا يتساقط .. لا يعرف النعومة ينزل في أحيان كثيرة بعصبية ليس لها نظير رذاذ ثم وابل المطر ثم البرد.. وقد تتساقط الثلوج.. صحيح أن الجو يكون لطيفا والمطر ينهمر.. لكن الشيء الألطف لو تساقطت الثلوج حيث سينال الطلاب إجازة رائعة.. كل الطلبة بحكم العادة يعلمون أن المدارس ســتقفل يوم الثلج، ولكن الطالبات ســيذهبن إلى المدارس، ليتحررن من يوم بيتي مقيت، والطلاب يســعدون بهذا اليوم حيث ســيلهون بقذف الطالبات بالكرات الثلجية.. آه لو أثلجت.. ســأراك حبيبتي وأقذفك بكرة ثلجية فتثورين ثم تضحكين.. ونلعب بلا تكلف أو مسئولية.

وجهك غض نضــير.. أريد أن أراك.. وتهمســين لي لقاؤنا غداً. تهللت أســاريري وكشفت عن غبائي.. لم أتذكر سبت النور..

كنيسة القيامة في ركن جنوبي من بيت المقدس تقبع.. وبيتنا على بعد خطوات من كنيسة القيامة.. وفي الساعة الثانية عشرة تطفئ الأنوار..

وتفنى في لجة الظلام شــفاه، وتضــيع أنوف، وفي الغالب أن لا يجد الأب ابنه أو ابنته إذا بلغا من العمر ستة عشر عاما أو اكثر. والشموع تزيد من سرعة انصهارها قبل الساعة الثانية عشر تغسل نفسها.. فهذه ليلة التطهير.

موعدنا غدا كنيســـة القيامة.. تجمعنا الآلام والأحزان والندامة، صـــفصـــافها يلوح مطرقا مطأطئا حزينا.. تلح في صـدورنا حمائم الأشـواق، وأمسـكت بذلتي الوحيدة أفحصها بقعة هنا.. يا أمي و .. و ..

ماذا قالت أمي.!

– أين القميص.؟

– القميص في يدك يا بني..

لم أدر لماذا، كنت شارد الفكر.

– خذ قميص أخيك يا بني.. سيحضر اليوم ليحتفل معنا بسبت النور.

أخي جندي رقيق طيب.. حينما يحضـر.. يجلب لي معه سـجائر من الجيش.. أنا أدخن لا يعلم أبي هذا وأمي تعرف إذ تجد بعض بقايا التبغ في جيبي، وتشـــاهد الدخان في غرفتي المقفلة أحيانا.. تعاتبني.. سأقول لأبيك ولا تقول.

أخي دائما شـارد الفكر.. لا يهمس ولا يبتسـم معي إلا ليقول لي أريد أن أراك رجلا أعتز بك، سـأعلمك دكتورا.. سـتكون احسـن أولاد الحارة.. وسـترفع رأسـنا عاليا.. لم يبق لنا يا أخي شيء سوى التعليم.

وحينما يقول لي ذلك يسرح خيالي بعيدا، دكتور وزوجة جميلة عيونها زرقاء.. أقول لأخي هل أحببت.؟ ويتنهد ثم يصمت.

أقول له: الحب عيب في مجتمعنا أليس كذلك.؟ يجيب أخي نعم.. أعاود سؤاله هل أحببت.؟

وهز رأسه بالإيجاب.. فقلت له أني أحب، فابتسم بسمة عريضة.

* * *

غدا سبت النور.. ستمر الدروس ببطء لا يطاق..

اليوم سـبت النور.. المدرس يشـرح الرياضـيات لذيذة لكن عقلي مقفل ويصـرخ المـدرس في وجهي مـا بـك.؟ آه عينـاها الزرقـاوان تطـارداني.. يـأمرني المـدرس بالانتباه.

تمر الحصـة الثانية.. ثم الثالثة.. قصـيدة حب جميلة.. أبو القاسـم الشـابي شـاعر رقيق يحيل الطبيعة إلى جمال هادئ عميق، ويحيل الحب إلى أغنية سـاحرة أخاذة مقدسة.

وتحدث مدرس التاريخ.. عن السياسة.. درسنا المفضل كيف نعود.؟

بل ويتعدى ذلك إلى اتهامنا بأننا شـباب تافه صـيّع.. جيل ملعون عديم القيم لا يعرف شيئا سوى مطاردة الفتيات.. والسينما.. أما جيله لقد كان يحمل السلاح وهو أصـغر من سـننّا بكثير.. الطلاب لا يطيقون الإهانة.. لكنهم يصـمتون.. السـياسـة شـيء مقدس.. يثرثرون فيما بينهم.. أما هنا فليس غريباً أن يكون المدرس أو أحد زملائهم من رجال المباحث.. فيلوذون بالصمت.

أيها المدرس نحن صيّع.. وأنعدمت اليوم في روحي حرارة اللقاء.. لحبيبتي.

اليوم سبت النور.. نحن صـيع.. الحب حرام.. ألم تحب.. نحن لم نخلق الحب في قلوبنا، لقد ولدنا ووجدناه مخلوقا.. أعطنا سـلاحا سـنحمله. سـنموت بلا قيمة إذا شـئت ذلك.. الموت ليس له ثمن في نظرنا.. أخي جندي يعيش في معسـكرات مريحة ويدخن سجائر فاخرة ويتشوق لضغط الزناد برصاص حقيقي..

أنا احترم مدرسـيّ دوما.. لكنه أثارني.. حتى بيني وبين نفسـي احب أن أحترم أي إنسان مهما كان رأيه ومهما كان موقفه مني.

وضاع في نفسي الشوق للقياها.. لن أذهب لسبت النور.. الصلاة بلا قيمة.. العدو على بعد خطوات.. أكتافنا لم تحمل سلاحا.. اللقيا بلا جدوى.. أصابعنا لم تضغط على زناد بندقية.. وجودنا بلا معنى.. حبنا عبث.. هذا ما يجب أن تقوله.. لنحترق صمتا..

عدت إلى البيت كان صـوتي عاليا.. تناول غذاءك يا بني.. لا أريد.. ماذا قلنا لك أيها المدرس.. لم نذنب.. لم نستلم مسئوليات.. اقفل النافذة قالت أمي.

وتحركت ببطء وتثاقل.. فكري شارد.. ولمحت جارتنا.. يا جارتنا مدرّسنا يخلط بين الحب والسياسة بين الواجب والعواطف.. مدرسنا لا يريدني أن أحب..

ابتسمت ذات العينين الزرقاوين.. ابتسمت..

الله يلعنك أيها المدرس..

موعدنا الليلة في كنسية القيامة.. ليلة التطهير.. وأخذت أعد الثواني عدّاً..

يا أماه ألن تذهبوا للصلاة.؟

تحركنا.. الأجراس تقرع.. أجراس كنيسة القيامة وأجراس كنيسة سيدتنا مريم تصلي من بعيد.. الأجراس تهدي تحياتها بعضها البعض الآخر.. وكل الأصوات تتعانق.

أماه ألا تسـمعين.؟ إن الأجراس تتعانق.. ودقت الأجراس.. ودخلنا الكنيسـة.. الشباب والشابات وسط الزحام ضاعوا.. والتقيت عيونها الزرقاء، وانطفأت أنوار قبة القيامة ما بين لذة العراك والفناء، وقال شـيخنا وكان غارقا يطهر الصـبايا مثلنا.. النور في كنيسة القيامة مطهر الخطايا.. وصية من الإله في سبت النور.

اطفأوا الأنوار عيشـوا بأنوار روحكم، أضـيئوا نفوسـكم للحظة فضـحكت وأصـبح الصـباح.. سـعيدة ليلتنا.. قالت جارتنا ذات العيون الزرقاء.. سـعيدة ليلتنا.. وبعد عامك الطويل نلتقي على الضـفاف لا حور في خليجنا ولا مغبة تخاف.. ومرت أيام طويلة، وجاء صيف خطر الأنياب أغلق باب الإثم والرحمة في وجوهنا.. كنت قد سافرت بعيدا..

وفي العام القادم لم نعد نلتقي في ليلة سـبت النور.. حيث كان ممنوعا مجرد اللقاء.. كانت الأسـلاك والمدافع ذات النجمة السداسية تقول مجرد اللقيا محرمة.. محرمة.

(شباط – فبراير 1968)

ولكن علياً في واد آخر

أقبلت فاطمة نحوي تودعني. شـــدّت على يدي طبعت على جبينها قبلة، طأطأت رأسها ثم قالت لي: لا تغب عني يا حبيبي..

* * *

وبينما أمي تصّر لي صرّة خبز ساخن شهي. قالت ببساطتها الحبيبة إلى قلبي..

– يا علي(لفيت لك الخبز علشان يوصل سخن لأصحابك).

وقبلتني.. وخرجت ومعي الصّـــرة وفيها هدية ثمينة زوج حمام للأصـــحاب في القاعدة.

وقالت أمي: سيكبر زوجا حمام تأخذهما معك في المشوار القادم.

* * *

كنت أتحرك بين مجموعة من الرفاق خمسـة أشـخاص ومعنا آمرنا.. وحينما اجتزنا النهر كانت أنفاس الأرض تتحرك وتعانقنا.. هذه أول عملية اشـــترك فيها منذ أول أيلول.

العملية في حد ذاتها لا تســـتغرق اكثر من خمس دقائق.. لم يكن تنفيذها صـــعبا بقدر صـــعوبة الاســتطلاع أو العودة من تنفيذها.. وحينما تصـــبح في حالة تزّقب طعنة في الظهر تصبح المعركة قاسية.

على ضـــفاف النهر ونحن في طريق عودتنا إلى أحراش (برما) في منطقة (جرش) كنا نســـمع صـــوت مدفعية.. قلوبنا قفزت هل يمكن أن يحدث هذا.. منذ أحداث أيلول الرهيبة في عمان.. ومجازر الزرقاء واربد.. ركزت قوات المقاومة قواعدها في ثلاث مناطق رئيسية منطقة عجلون.. والغور وأهمها أحراش جرش التي تضم آلاف المقاتلين ومن ضمنها مجموعتنا..

إستنفاراتنا دائمة.. تحرش قوات السلطة مستمر.. بل أن زمام السلطة قد أفلت من السلطة. لم يعد لضباط جيش أيلول من أهمية لدى الجنود سوى أن يؤدوا لهم التحية العسكرية، فالأوامر بالنسبة لهم كما عبئوا وشحنوا هي طلقة في رأس فدائي قد يكون الفدائي أخاه أو ابن عمه أو صديقه، ذلك أمر لم يعد له قيمة حيث يلتقي الجهل والإقليمية.

عشنا لحظات توتر دائم.. ودفاع عن النفس فالغدر متوقع في أي لحظة.. عملياتنا في البدء أوقفت تماما، ثم شحت، حيث لم يعد اجتياز النهر مغامرة واحدة بل مغامرتين. ليس على ضفة واحدة من النهر بل على ضفتين.

وكلما دنت خطواتنا مترا أثناء عودتنا.. تحركت مشاعرنا نحو الأحراش.. نحو رفاقنا هناك.. فالمؤامرة مستمرة وها هي دلائلها.

وبدأنا نميز صوت قذائف الار-بي-جي (10) و (7) وأصوات الدوشكا والديكتريوف والكلاشنكوف وهي تتقاطع في تصميم مع أصوات رشاشات (30.00) والبنادق البلجيكية والأوتوماتيكية الأميركية.. ويعود صوت المدفعية وأزيز الطائرات ليحجب عن آذاننا كل صوت.

ورغم الإجهاد الذي حل بنا نتيجة العملية التي قمنا بها إلا أن النشاط دب في أجسادنا المرهقة، حيث أصبحت قضية الحياة والموت أمام أعيننا، ليس بالنسبة لمجموعتنا فحسب، ولكن لقضية حملنا من اجلها السلاح ولن نسقطه.

ومن خلال تجاربنا، أدركنا مدى كثافة النيران التي تحاصر الأحراش حصارا محكما يفرضه الجيش في عملية إبادة تامة لعناصر المقاومة.

استطعنا أن نخترق الحصار من خلال الأشجار الكثيفة والصخور المتشعبة ووصلنا إلى رفاقنا.

كانت المعركة رهيبة.. قصف المدفعية المركز والمتواصل والدبابات لا تستطيع الحركة لكن مدفعيتها تمارس دورها بشراسة وباءت محاولات الجنود التقدم تحت ستار كثيف من النيران بالفشل.. غابات جرش الجميلة تدب فيها الحرائق.. لكنهم

لا يستطيعون أن يحرقونا معها.. حتى لو متنا فإننا سنموت مثل الأشجار التي طالما أظلتنا.

الشهداء.. لم نعد نحصي أعدادهم.. الجراح المثخنة تنزف من كل جسد، نبحث عن نقط مطهر يود، مكركروم أو سبيرتو.. القصف يتوالى، ونحن نقبض على الكلاشنكوفات بإصرار، ننتقل من مكان إلى آخر بين صوت المدافع وأزيز الرصاص والنيران التي لا تجد ما تأكله، والأنين الذي يتصاعد من أنفاس واهنة هنا وهناك.

هل يجوز لي أن أتذكر بإلحاح صورة أمي.. وصورة فاطمة خطيبتي إنهما تحجبان عني رؤية المعركة، بين أحضان الموت أتذكر فاطمة، أراها في ثياب الزفاف على أرض يافا وأمي تزغرد لنا.

وتقدم لي زوجي الحمام اللذين وعدتني بهما أمي..

الرصاص من كل جانب يمزق مجرد الذكرى.. فأرتدّ إلى واقعي عربيا يحمل كلاشنكوفا يقاتل دفاعا عن وجوده ضد العدو القبيح، يقول حكيم إن شر الأعداء وأقبحهم ما كان كامنا في الذات وها نحن في أحراش جرش نصارعه.

آه يا أمي إني أحبك.. وضغطت على الزناد فانطلقت الرصاصات متتالية بثوان في رشاشي الأوتوماتيكي.. وأسرع من انطلاق الرصاص ارتدت إلى ذهني صورة فاطمة تحجب عني صوت الرصاص ورائحة الموت.

ولكن هل تستطيع.؟

ولكن هل أستطيع أن أرى وجهها ووجه أمي.. هو حلم ظمآن في صحراء.

* * *

أقبلت فاطمة نحو عمتها ناحبة.

– الأخبار سيئة يا عمتي.

ثم تابعت حديثها: الفدائيون محاصـــرون والمدفعية لا ترحم.. إني خائفة فعلي هناك..

وقفت الأم حائرة، هل تواسـيها هل تجمّلها بالصـبر، ولكنها هي نفسـها لا تطيق الصبر.

* لا تخافي يا بنيتي ربنا معهم.

* يا عمتي المدفعية لا ترحم.

– لن يستمروا هم عرب أيضا.

أخذت أنباء القتال تتوالى وعواصـم الوطن الكبير تنقل الأنباء، وماذا يجدي صـراخ من خلال ميكرفون في غرفة مقفلة.؟

الدماء تنزف، الفدائيون بالمئات يسـتشـهدون. طائرات، دبابات، وعربات تحاصـر مدافع تنطلق، أيها الفدائيون أين المفر؟!.. الموت من أمامكم والعدو وراءكم والغدر من فوقكم والموت من كل جانب فليس لكم والله إلا النصـر أو الشـهادة.. من أجل كل التراب العربي اشربوا عصير لحاء الشجر، ولكن يجب أن تقاوموا.

– هي مؤامرة يا عمتي أكبر من طاقتهم.

* تجملي بالصبر يا بنيتي.

انخرطت فاطمة في البكاء وكان نشـيجها مسـتمرا، وعمتها التي كانت أيام فلسـطين توصل الطعام للمجاهدين تعرف قيمة الصبر.. ألم يستشهد زوجها أبو علي لم يزل علي جنينا.. هكذا الحياة آلام، وهكذا تعلمت من الحياة منذ أن خبرتها أنها معركة مستمرة.

قالت فاطمة: إنهم يريدون أن يبيدونا.

ثم تمتمت .. آه.. يا علي كم احبك.

كانت فاطمة تبكي.. وظلت فاطمة تبكي.. وكان علي يفكر بها ويفكر بـــأمه.. هو يمسك كلاشنكوفه لكن قلبه معهما.. كم مرة قال لها أن الحياة بلا ارض لا تساوي

شـــيئا.. ها هو يرى الموت بعينه، وهو يدرك أن للحياة ألف معنى وألف قيمة لأننا نحيا من أجل هدف ومن أجله نموت.

أما فاطمة فإنها أمســـكت عن البكاء فجأة وكأن خاطرا نزل إليها من الســـماء.. فقامت من جلستها فجأة وهي تمسح دموعها بطرف أناملها..

– عمتي وداعا..

والعمة قالت لفاطمة: بنيتي يدور في ذهني شيء أرجو أن تشجعيني. سأذهب إلى الأحراش..

تبحلق فاطمة في عمتها وكأنها تراها لأول مرة.. ماذا تقولين تريدين أن تذهبي إلى الأحراش.. يا إلهي.. يا إلهي.. أي وحي! أي الهام.! أي قلب هذا! إني أفكر نفس التفكير.

وبينما أم علي وفاطمة تفكران في الذهاب إلى الأحراش.. كان علي في لحظة أوبته من تدمير الجســـر الذي يقع على الطريق القديم ليمنع أرتال الدبابات من الزحف وإكمال الطوق.. كان علي يفكر فيهما.. هل من العدل أن تلحّان عليه كل هذا الإلحاح..؟؟ لماذا تظلمانه؟. لماذا وهو يحمل روحه على كفه تعانقانه.؟! ها هو مع مجموعته يقفزون بين الهضـــاب والتلال، بين الصـــخور والمرتفعات كالنمور يتحركون، يضربون هنا وهناك، والقدر يتخطاهم.

لحظة بين ولحظة أخرى يصـطاد رفيق لهم رغم ذلك يتخطون الموت لأنهم بالموت يحيون.

* * *

كنت يا أمي أريد أن أوصيك بفاطمة التي أحبتني وكنت يا فاطمة أريد أن أوصيك بأمي التي أنجبتني، ولكن ما يفصـلني عنكما هو سـنوات من الرصـاص والدخان والموت.

جراحي تنزف، ممرّضنا الكركي الوحيد الذي بقي أصيب بجروح خطيرة هو أيضا.. طبيبنا العربي القادم من مصر استشهد.. حاول الممرض رغم جراحه أن يسعفني، النزيف شديد ربطنا أعلى الفخذ... لكن هل ستحصل مضاعفات.؟ جرح مهمل بلا نقطة من مطهر.؟! إني انتظر رعاية الله، ودعواتك يا أماه وحبكما لي، لكن حتى لو شفيت، ما فائدة إنسان بلا ساق.؟ لن يكون للساق الأخرى قدرة على تحمل كتفين ويدين تحملان سلاحا، ما فائدة رجل بلا ساق لحبيبة صبية.؟

كل أمنيتي أصبحت أن أراكما لو للحظة.. هل تأتي هذه اللحظة؟

ورغم نقاط التفتيش المتعددة التي أصبحت مظهرا عاديا من مظاهر البلد كلها استقلت المرأة والفتاة سيارة أجرة.. الدنانير التي كانت تدخرها أم علي دفعتها للسائق قال لها:

– هي مغامرة وقد نرجع من منتصف الطريق.

وأصرت على الذهاب.. لم يستطع السائق أن يتابع المسير وعلى بعد كيلو مترات توقف كانت أصوات المدفعية وأصوات الرصاص تأتي إليهما من بعيد.

فوقف السائق .. إني أتمنى لكما السلامة.. ثم أشار إليهما غربا نحو الجبال يمكنكما من ذلك الطريق أن تجتازا تلك الجبال بعد ساعات..

وسارتا.. الجبال مع الشوق واللهفة تصبح سهولا، وبعد جهد ساعات طويلة استطاعتا أن تلحظا شبحا في ثياب مموهة..

وندهت عليه أم علي: بني. بني.. وقف الفدائي دهشا من يأتي هنا والنار تلتهم الأرض..

فأشار إليها بالتقدم.. وطلب منها الحذر وهي تتحرك.. ووصلته عانقته وكأنها تعانق عليا، هنأته بالسلامة.. يا بني أتعرف عليا.. علي رفيقكم.. بطل العمليات ضد اليهود.. هو أبو السبع كما تنادون عليه.

وانسل الفدائي ومعه امرأة وفتاة وسار بهما في شعاب الجبل.. وداخل كهف في سفح مغطى بأشجار.. أشار إليهما أن يدخلا.

كانت عتمة الكهف تحجب الرؤيا ولكنها لا تحجب السمع.. آهة؟. عليلة قفزت من صدر جريح كان الممرض متمددا بجوار علي.. وعلي يعاني من سكرات الموت.. دخلت الأم والخطيبة الكهف، وكان الممرض يغالب أوجاعه..

سأل: من أنتما.؟

أجابته: أمك أم علي وخطيبته..

فتح علي عيناه.. وأخرج من حلقه أحرفا واهنة.. من جوفه استلها كأنها نصل حاد..

– من جاء.؟!

أجابه الممرض بإجهاد: أمك.. أمك يا علي وخطيبتك..

تمتم أمي.. فاطمة..

وكانتا قد اقتربتا منه على بعد متر أو أقل.. نظر إليهما وابتسم بسمة انهالت أمه عليه بالتقبيل.. وأخذت فاطمة.. تنادي.. تصرخ.. تبكي.. تولول.. ها أنا يا علي حبيبتك يا علي جئت لأراك.. ولكن عليا كان في واد آخر.

(تموز – يوليو 1971)